أمل

رواية

عماد زعيتر

دار الزيات للنشر والتوزيع

أمل
الكاتب: عماد زعيتر
إخراج فني: الباشا عبد الباسط
رقم الإيداع: 17875 / 2021
الترقيم الدولي: 1 - 260 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع shahnda71@gmail.com
مجلس الإدارة/ د. شاهندة الزيات 01066736765
المدير العام/ أ. محمود محروس 01011122429
المديرالتنفيذي/ أحلام محسن 01015766014

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

9 789778 442601

«رواية»

أمل

المؤلف

عماد زعيتر

شعرت داليا بغيث السعادة يهطل على قلبها، ويغسل صدأ مشاعرها، وينساب في حناياها، فأشرق وجهها بابتسامة ساحرة وغمرتها سعادة روت أرض الحرمان التي كانت عليها تحيا أمانيها وقالت:

- مع حسن الظن بالله سيبقى لنا أمل.

في عصر يوم الخميس وقف أشرف في محطة قطار سيدي جابر ينتظر سمر حتى أتت ليستقلا القطار المتجه إلى دمنهور ليقضي كل منهما عطلة الأسبوع مع أسرته.

حيث أشرف في السنة النهائية في كلية الهندسة وسمر في السنة الثالثة في كلية الآداب تجاورت بيوتهم في القرية وتوطد الحب بينهما منذ سنتين.

دلفا إلى إحدى السيارات في موخرة القطار تجنبًا للزحام، امتزجت في قلبه اللهفة بالقلق: اتأخرتِ ليه؟

قطرات خجل تدفقت من ميسمها فبدت على صفحات وجهها:

- كنت باشتري حاجة.

أشرف باهتمام: بتشتري إيه

أخرجت سمر من حقيبتها علبة مغلفة وقالت وهي تبتسم ابتسامة أضاءت وجهها: كل سنه وانت طيب، النهاردا عيد ميلادك.

الحب مملكة لايقطنها إلا رهفاء المشاعر. لمعت عيناه وارتسمت على محياه ابتسامة صافية وتدفقت السعادة في حناياه.

- وانتِ طيبة يا عمري، والله كنت ناسي.

لم يكن مألوفًا عند بعض الشباب الريفي الاحتفال بمثل هذه المناسبات؛ ولكن ربما أرادت سمر أن يطرب فؤاده لشغفها بأموره وتكون هديتها خير سفير للنوايا الحسنة لمشاعرها.

- نفسي أخلص السنة دي على خير واتقدم واخطبك رسمي.

سمر بشجن: مش هينفع غير لما أختي داليا تتخطب الأول.

انتهى أشرف من تجهيزات كثيرة في مسكن عرسه وتهيأت أحواله لحياة جديدة تعزف موسيقاها أنامل حبيبته على أوتار قلبه.

- عمومًا أنا ووالدي الحاج صالح كل شوية بنعمل حاجة في الشقة. انت عارفة إني وحيد ومالیش جيش واتمنى فرحنا يكون في أقرب وقت.

صمت أشرف قليلًا ثم كاشفها عن سر صمته فقد تذكر حجرة عثرة ربما تعوق مجرى أمانيه وتكبل خطى قلبه وتنزع «طوق الحمامة» من عنق إحساسه، وتمنع سرب أحلامه من التحليق في سماء الهائمين.

- لكن الحاجة الوحيدة اللي خايف منها عصبية والدك، دا ممكن يعمل مشكلة من مافيش.

سمر بأسى: بصراحة كلنا في البيت بنعاني من عصبيته وانفعالاته المتكررة.

ثم تذكرت أمرًا ابتهجت له، حيث فردوس الأحلام والنعيم الذي ترجوه والفارس الذي تنتظره ليحملها كفراشة على كفه ويصنع لها من كرمة الحب خمرًا تنتشي بها روحها العطشي.

- لكن الحمد لله أنا مطمنة إنك نصيبي علشان صليت استخارة أول ما بدأت تكلمني وتصارحني بمشاعرك، فشُفت نفسي في الرؤيا شايلة صينية عشا وداخلة بيها بيتكم.

أشرف مازحًا بعدما انتشى فؤاده بالرؤية التي روتها:

- دا انتِ جايبة الخير معاكِ.

تهلل وجه سمر وابتهجت مشاعرها:

- على نياتكم ترزقون إن شاء الله، الخير كله يبقى ليك على قد نفسك الطيبة، وتكون أكبر مهندس مدني في مصر كلها.

أطربت الرؤيا جوارحه وأججت مشعل أمانيه فقال مبتهجًا:

- يسمع منك ربنا، وكما يُقال وراء كل رجل عظيم امرأة.

وصمت قليلًا ثم أردف كلامه: لو لم تكن وراءه لكان أعظم.

بتغيُّظ بالغ قالت سمر وهي تبتسم تبسم المغضب:

- طيب ابقى قابلني لو مشيت خطوة واحدة لقدام.

لايمنحك البخور عطره إلا بإحراقه، فهكذا الحب؛ أحيانًا يحتاج لتلك اللفحة لتوثيق ميلاده الجديد.

أشرف مشاكسًا: يا حق ما أبقيت لي صديقًا.

تبرمت سمر وأطل حزنها من عينيها وهي التي جاءت متلهفة لتحتفل معه بذكرى ميلاده، فرق قلبه لشجنها وعلى إثرها كلماته:

- خلاص ما تزعليش عشان خاطري، دا أنا باهزر معاكِ.

الحب نور ونار، وكلاهما يضيء سراديب القلوب ويؤخذ من الهجير حسب الرغبة لتحلية الحب.

* * *

انتهت داليا من ترتيب البيت واستلقت على فراشها في وقت الظهيرة تتصفح هاتفها الجوال وعلى صفحتها عبر «فيس بوك» تتابع منشور إحدى صديقاتها «هل توافقين على الزواج بشخص أكبر منك سنًّا؟"

فكتبت في تعليقها «توافق الأرواح هو الأهم والانسجام العاطفي وأن يكون رجلًا لها لاعليها».

فكانت نظرتها للرباط المقدس لا تخضع لمعايير اجتماعية؛ بل اعتبارات عاطفية فحسب. فما ترجوه الروح قبل ما يختاره العقل.

دق شقيقها هيثم الباب. اعتدلت داليا في جلستها وقالت: اتفضل.

هيثم مبتسمًا: عاوز اطلب منك حاجة.

أدارت بصرها عن الهاتف ونظرت إليه: حاجة إيه يا هيثم؟

ناشدها هيثم وتوسلت عيناه: عاوزك تعملي ليَّ صفحة على الفيس.

داليا مستفسرة: هو انت جِبت تليفون تدخل منه على الصفحة؟

هيثم راجيًا: من تليفونك.

أراد هيثم أن يكون له حضور على صفحات التواصل وحظ يُشبع به رغبته ويباهي به أصحابه؛ ولكن داليا رفضت بهدوء.

- وكل شوية تقول لي هاتي تليفونك أدخل على صفحتي، مش هينفع.

شعرت داليا بشجنه الذي بدا على قسمات وجهه فساقت له هذا الوعد الذي ربما تعجزعن تحقيقه لو تعسف والدها كعادته.

خليك لما تنجح في الإعدادية هخلي بابا يجيب لك تليفون واعمل لك الصفحة اللي انت عايزها.

بدا على هيثم الارتياح لهذا الوعد حيث هو مجتهد في دراسته ونجاحه في الإعدادية ليس صعب المنال، فقد تربى بداخله أمل أن يكون مهندسًا مثل جاره أشرف.

- طيب انتِ ليكِ صفحة ع الفيس؟

داليا: أيوة عندي صفحة اسمها «ولنا أمل».

هيثم مستوضحًا: ولنا أمل في إيه؟!

داليا بتفاؤل: في السعادة وراحة البال وإن بكرة أحسن.

انت عاجبك جو النكد اللي بابا معيشنا فيه؟

عثت قسوة أبيهم في أنفسهم وجرفت كثيرًا من مراعي أرواحهم ولكنهم جميعًا تشبثوا بحلم الغد الأفضل، فبقي لهم أمل.

هيثم بتودد: ممكن اشوف صفحتك؟

رحبت داليا برغبته وناولته الهاتف.

صور قليلة وجدها هيثم حيث كانت داليا متحفظة كثيرًا في هذا الشأن بدافع الحياء، تصفحها وقال مستنكرًا:

- اشمعني تحطي صورة بسمة وما تحطيش صورتي مع الصور اللي عندك؟

وعدته داليا بثقة هذه المرة:

- حاضر، صدقني في أي مرة هاصورك واحط صورتك معايا.

هيثم بلهفة: أنا دلوقتي هاروح درس الأستاذ مصطفى ولما ارجع تصوريني أنا كمان.

داليا بصدق: حاضر لما ترجع.

خرج هيثم من غرفتها وتناول كتابه من على المنضدة وتطلع في المرآة ومشَّط شعره، وكانت والدته صفاء قد انتهت من كي جلباب والده.

فقال لها منتشيًا بوعد شقيقته له: أنا رايح درس العربي يا ماما.

صفاء بتأكيد: لما تتطلع من الدرس يا حبيبي ترجع البيت بسرعة؛ علشان أبوك لو سأل عليك يلاقيك.

دقت صفاء باب الغرفة وطلبت من داليا أن تقوم بغسل الأطباق في المطبخ وستذهب هي لتطعم الدواجن في الحظيرة التي تقع داخل سور البيت.

قدم ماهر توًّا من حقله وهو يتصبب عرقًا واضعًا جلبابه على كتفه.

ماهر بحدة: هيثم فين؟

كان ماهر فظًّا، غليظ القلب، ثقيل الروح والبدن، زرع الدنيا من حوله ألغامًا وصياحًا حتى ضجرت جنبات البيت وخارجه من قسوة طباعه.

حادًّا كان في غطرسته، دائم التبرم، ومن فرط حبه لذاته كان يتأفف من أيسرالأشياء، وكان بارعًا في جلب الغم لنفسه وتعكير صفو من حوله.

أجابته صفاء بهدوء تُجفف به ماء غضبه الذي تدفق في عينيه:

– هيثم في درس الأستاذ مصطفى، ووصيته يرجع بعد الدرس على طول.

ماهر متذمرًا: إمتى يخلص امتحانات ويساعدني في شغل الأرض؟

أشفقت صفاء على أوجاعه: هانت كلها شهر ويمتحن.

كانت قواه منهكة من أعباء العمل ومن توتره بمواقف يفتعلها مع جيرانه محرضًا فيها مشاعره على الثورة والهياج.

– انتِ هتعملي إيه ع العشا؟

صفاء: هادبح فرختين علشان سمر راجعة النهاردا من الكلية.

ماهر بضجر: أنا هادخل أريح شوية، ولما هيثم يرجع خليه يخلص مذاكرته علشان يروح معايا الأرض بعد العصر.

استقر بخلده أن عصا جبروته ستعينه على تربية أولاده وتيسر هدايته لهم ليحركهم بين أصابعه كيفما شاء، فانفضت قلوبهم من حوله ومن فرط طغيانه تراكمت حجب كثيفة بين أرواحهم وبينه.

* * *

جمال صفوت. أستاذ في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية. له مكتب استشارات هندسية، يعمل معه في المكتب مهندسان شادي

ومحمود، بينما سعيد موظف استقبال وموكَّل بالاتفاق على المقابل المادي الذي يطلبه المكتب من العملاء، وقد تجاوز الستين من عمره، التحق بالمكتب منذ ثماني سنوات بعدما خرج من عمله بالإدارة المحلية معاشًا مبكرًا.

دلف إلى مكتب جمال فوجده قد أسند مرفقيه إلى المكتب وغطى وجهه بكفيه.

ساوره القلق عليه وسأله في لهفة: فيه حاجة يا دكتور؟

خبأ جمال حزنه في أعماقه ورفع صوته ليبدو طبيعيًا:

– مافيش حاجة، كله تمام.

كان يتسكع في شوارع روحه الحزينة بتروٍّ وكأنه هام بعذابه، وقع سعيد في حيرة وتلجلجت أفكاره وزم شفتيه ثم قال:

– نفسي أكلمك براحتي من غير ما تغير الموضوع أو تاخد الكلام لسكة مختلفة.

ابتسم جمال ليواري أنين نفسه فقد اعتاد أن يُخفي أحزانه وكان بارعًا في ذلك، فلم ينثر يومًا همومه على رؤوس العامة أو الأصدقاء، وكأنه وضع عليها قفلًا ليصبغها بشعار «أنا فقط». فكانت أوجاعه غير قابلة للندب أوالإعارة، ولم يرضَ يومًا أن يقوم أحد بمشاركتها أو تحميلها أو يعلق عليها بما يجبر خاطره.

- اتفضل يا عم سعيد اتكلم براحتك.

سعيد بتودد: ربنا يعلم حبي ليك قد إيه وباتمنالك الخير. انت ليه مش راضي تتجوز بعد وفاة الدكتورة ضحى الله يرحمها؟

أرجع جمال رأسه للخلف وتنهد تنهيدة حارة ثم اعتدل في جلسته:

- مش حكاية عدم رضا لكن الموضوع ببساطة إن الشغل في الجامعة وفي المكتب مالي حياتي.

كالذي أراد أن يزيح صخرة عريضة تعترض طريق رحلته فلما أخفق أنهى خطواته عندها وعاش حولها واتخذها فراشًا، وهذا ما صنعه جمال؛ فقد تمدد على صخرة أحزانه ولم يسعَ لإزالتها من دربه، فكان يأخذه الحنين إليها كلما خلا بنفسه، وأحيانًا يفر من بطشها ويتدثر بأعماله.

سعيد حانيًا: لكن العمر بيجري ولازم تتجوزعشانك وعشان ابنك مازن.

أوضح له جمال عن سرعزوفه الفترة الماضية عن الزواج فالأمر ليس بيده وحده:

- انت عارف يا عم سعيد حبي لمازن وملم بظروفه الصحية وخايف يتأثر لو لقي واحدة بتحل محل والدته في البيت وفي حياتي.

أوغلت به شجونه بعيدًا فما عاد إلا مهتديًا بنجم صبيه الصغير الذي جلَّى عتمة حياته وروت بسمته جفاف روحه.

احتج سعيد بلطف: الموضوع يتوقف على الإنسانة اللي هترتبط بيها، وأكيد هتلاقي بنت الحلال اللي تقدر تحتويه وتعوضه عن حنان والدته الله يرحمها.

نكتت كلمات سعيد جراحًا في قلبه لم يدرِ لها بلسمًا فطفت في عينيه حسرة أراد أن يُخفيَها فدسَّ وجهه في أوراق على مكتبه وقال بأسى:

– ادعي لي يا عم سعيد ألاقي إنسانة طيبة وحنينة زي ضحى الله يرحمها.

رفع سعيد يديه وقال مبتهلًا: ربنا يرزقك باللي تسعدك وتلاقي راحتك معاها.

عاود جمال نظره إليه وحَمِد له صدق مشاعره: أنا مقدراهتمامك بيا يا عم سعيد، وموضوع الجواز فكرت فيه أكترمن مرة مش كرغبة وعاطفة بقدر ما ابني مازن محتاج لحد يرعاه ويهتم بيه.

كان جمال يبحث بشغف عن روح تشبه روح ضحى، وحتى لا يتلطخ بجريرة اختياره كان يتأنى؛ حتى يتسنى له أولًا أن يلملم شظايا قلبه الذي دغدغته فاجعة موتها.

* * *

في غرفة في الطابق الثاني جلس بعض طلاب الصف الثالث الإعدادي وكان من بينهم هيثم الذي اغتنم وقوف أستاذه على السلم مع ولي أمر أحد الطلاب وخرج إلى الشرفة وأشعل سيجارة.

عاد مصطفى إلى الغرفة فوجد بعض الطلاب يتهامسون وعيونهم راسخة على باب الشرفة الذي فتحه أحدهم فتتطلع بنفسه ليرى الأمر، فألقى هيثم بالسيجارة وبدا عليه الارتباك.

مصطفى مندهشًا: واقف بتعمل إيه هنا؟

أربكته مداهمة أستاذه لفعله المخزي: لا مافيش حاجة، كنت باشم شوية هوا.

النفس الواهنة عندما تتلطخ بقبيح تتدثر بالكذب حتى تمر العاصفة.

مصطفى بحيرة: وريحة الدخان دي جات منين؟

تلعثمت كلماته: تلاقي... تلاقي حد بيشوي أستاذ يا درة..

تعجب مصطفى من حال تلميذه دمث الخلق:

- انت بتلخبط في الكلام ليه؟ وأصلًا دا مش أوان الدرة، أنا أكتر من زميل لك قال لي إنك بتشرب سجاير، وانا ما كنتش مصدق إن شاب في سنك ملامحه هادية وطيب يعمل كدا، أنا عندي أربعين سنة

وعمري ما دخنت، وعمر ماكان التدخين عنوان الرجولة أو مؤشر إيجابي أو علامة تتميز بيها على أصدقائك، فلو حابب تتميز على زمايلك تميز بعلمك وأخلاقك وسمتك الطيب.

استسلم عقله لكلمات أستاذه الذي أوجعه بسياط وعظه، فبدا كمريض خرج بعد جراحة إلى غرفة الإفاقة، وحتى يرفع الحرج عن نفسه ساق مبرره الواهي:

- أنا اتعودت على شربها من زهقي يا أستاذ.

مصطفى متعجبًا: زهق!! الكلمة دي لسَّا بدري عليك عشان تحسها، خاصة إن حياتك ما فيهاش أي مسؤوليات.

نفث هيثم هموم صدره مع بقايا دخانه المختبئ بين ضلوعه وقال بشجن غلَّف صوته:

- أبويا أسلوبه صعب وبيضربني ويشتمني كل شوية على أي حاجة مهما كانت بسيطة.

كان ماهر يترقب أخطاء ابنه لا ليعالج خللها أو يستر زللها؛ بل ليتلذذ بضربه وإيلامه، وقد جعلت له هذه الشكوي كِفلًا مماثلًا لنصيب ابنه من امتعاض مصطفى الذي لم يشأ أن يقلب الطاولة على ماهر، وبقي هيثم ماثلًا أمام عينيه في ثوب الجاني.

– قسوة والدك مش مبرر لتصرفك المشين، فحافظ على نفسك، طريق الضياع ممكن يبدأ بنفس من سيجارة أو خطوة مع صديق السوء، ومشيك مع الولد اللي اسمه علاء خسارة مش مكسب.

حكى له عن رجل كان يمتلك قطعة أرض أمام بيته قرر أن يجعلها مسجدًا، فوضع لها الأثاث وغرس فيها أعمدة البناء، وكان كل ليلة يخرج إليها ويصلي فيها قيام الليل، ثم وافته المنية وورثها أبناؤه فلم تكن نفوسهم طيبة، فتلكؤوا في إتمام المسجد، وكانوا كل ليلة يتسامرون فيها ويتقامرون، وبعد عام أغراهم أحد الناس بالمال فباعوا له الأرض وأتم بناءها حانة للغواني والخمور، تبدَّل حال الأرض لما صحبها الأشرار.

تضلَّع عقله النصيحة فأومأ برأسه وخشعت جوارحه فلم تفارق الأرض عيناه خجلًا من أستاذه الذي سكب في قلبه نور الهداية، وأسرج بداخله جواد أحلامه، ولمس مساحات جدباء في نفسه لعلها في الغد تُزهر.

* * *

فتح جمال باب الشقة ودلف ببطء إلى غرفة مازن فوجده جالسًا على الأرض وألعابه مبعثرة إلى جواره، ركلتها أقدامه الممدودة بعدما ملَّ من صحبتها.

انحنى إليه جمال وقبله وضمه إلى صدره ليملأ الربع الخالي في نفسه بالحنان.

تبسم بشغف ووضع يده على كتفه:

- تاكل معايا؟

فأشار هيثم برأسه: لا.

رمقه جمال بنظرة حانية ومسح على رأسه:

- أشغل لك التلفزيون تتفرج على الكرتون اللي بتحبه؟

كرر رفضه بإشارة رأسه التي سئمها والده.

خرج جمال من الغرفة وألقى بجسده على الأريكة دون أن يخلع ملابسه، وأغمض عينيه قليلًا واستدعت ذاكرته هذا المشهد المريع الذي حدث منذ تسعة شهور. حيث كان هو ومازن يقفان في الشرفة في انتظارعودة ضحى من عيادتها، حتى عادت وتركت سيارتها بمحاذاة الرصيف المقابل، والتفتت لتستدير وتعبر الطريق، فصدمتها سيارة مسرعة وماتت في الحال.

واستحالت الحياة من بعدها غربة، وكأن أنوار الكون قد انطفأت وطحنت رحى الأيام كل أعواد السعادة فلم تبقَ في الوجود لذة بعدما

رحل معها كل جميل، وكأنها كانت إكسير الحياة لهما، وقارب الأمل الذي يحمل رحلة الأيام على متنه، فترمل بموتها حبورهما.

ومن هول الفاجعة اعترت مازن حالة خرس مؤقت، واتخذ من غرفته كهفًا لأحزانه، مسح جمال وجهه بيديه وقام وفتح الباب فوجد مازن قد جلس محتبيًا على حافة الفراش، تدورعيناه في أرجاء الغرفة التي ملَّت روحه من زخارفها.

جمال متوددًا: إيه رأيك لو رحنا نزور خالك كمال وتلعب مع فارس وتغريد؟

فأشار مازن برأسه: لا.

أحس جمال بغصة في فؤاده على حال فلذة كبده الذي أخبره الطبيب بعد فترة من العلاج بأن شفاءه بيديه لو خرج من عزلته وأقبل على الحياة وناضل مناحته وتخطاها.

- يا حبيبي أنا خايف عليك من قعدتك لوحدك، لازم تختلط بالناس وتزور صحابك وقرايبك وتمارس حياتك زي ما كنت متعود.

ربما كان لقاء خلانه جلاءً لأحزانه وتفريغًا لكل الطاقة السلبية التي شحن بها قلبه؛ ولكن روحه البريئة استسلمت طواعية لسيل

الهموم الذي داهمها، فأراد جمال أن يعوق مجراها بعض الوقت فجلس أمامه على فراشه ووضع يديه على كتفيه:

– مش عاوزك تزعل، لأن ماما راحت عند ربنا في الجنة، وأكيد هيا مبسوطة هناك؛ لأن الجنة فيها كل حاجة حلوة، لكن حاجة واحدة بس هي اللي بتزعل ماما.

فرفع مازن رأسه ونظر إلى أبيه الذي ربما يأتيه بمفاجأة لم تكن في حسبانه.

فأردف جمال متأسفًا على حاله:

– إنك قاعد لوحدك وعلى طول زعلان.

سكبت كلمات جمال الدهشة في رأس مازن، كيف وعت والدته وهي في الجنة حياة الانكسار التي يحياها؟ وحياته القاتمة كيف لها رغم البعد أن تراها؟! عقله الصغير أبدًا لا يعي حقيقة الموت المعنوي، فقد دفن جمال روحه معها، وكلما زارها استرجعها وطرح همومه على أعتاب قبرها بحديث الروح للجسد المسجى:

– أنا لما باروح ازور قبرها باقول لها كل حاجة عنك، وعرفتها إنك بطلت تصلي بعد وفاتها ومش بتقرا في المصحف زي ما كانت معوداك.

نظر إلى أبيه مبهوتًا؛ فلمَ كشف سره في معسكر الموتى وعبأ لحودهم بتفاصيل حياته؟!

فتدارك جمال حديثه من نظرة مازن التي جمعت بين الدهشة والأسى:

- فلوعاوز تفرحها تعالى معايا وأنا رايح أزورها بكرة وقول لها إنك مش هتقعد لوحدك تاني.

كان جمال يتردد على قبرها ليأنس بها ويخصها بشكواه وأحلامه التي يرجوها، ويقص عليها أعباء عمله وحوائج الناس التي يقضيها الله على يديه كما اعتاد أن يصنع طيلة حياتها معه.

* * *

عاد أشرف إلى الإسكندرية وأودع حقيبته في الغرفة التي يسكنها على سطح أحد المنازل، ونزل بخطى مسرعة حتى لا يتأخر عن أولى محاضرات اليوم وأبلغها في الصعوبة.

استوقفه منصور بائع الكتب القديمة وقال محتفيًا بعودته:

- حمد الله على السلامة يا هندسة.

أشرف بتودد: الله يسلمك يا عم منصور.

ناوله أشرف فطيرة بالسمن البلدي غلفتها والدته بورقة بيضاء.

تبسم منصور وقال ممتنًا: تسلم إيد الحاجة، وربنا ما يقطع لها عادة. أنا لقيت رواية «دعاء الكروان» اللي سألتني عليها.

تابع أشرف خطاه حتى لا يتأخر: وانا راجع بعد العصر هاخدها منك.

ناشده منصور أن يمكث برفقة كتبه قليلًا:

- أنا كنت عاوزك تقرا الفصل الأول فيها لحد ما اصلح العجلة عند ناجي العجلاتي علشان أروح بيها مشوار التأمين الصحي الساعة عشرة.

رجع أشرف خطوات وقال بشجن: أنا كدا هاتأخر على المحاضرة.

خاطب منصور مروءته واستحث فيه إحسانه:

- الله يسامحك، وانا اللي باقول عليك سندي، دي صحبة خمس سنين وعيش وملح!

أخفى أشرف استياءه ما استطاع فقد اعتاد جبر الخواطر؛ ولكن حتى لا يتأذى بمعروفه تعجَّل رجوعه:

- حاضر يا عم منصور، كلامك الناعم دا بيدغدغ مشاعري، لكن لو لقيت نفسك هتتأخر تعالى على رجلك وسيب العجلة هناك.

وقف أشرف يطالع الرواية وهو يترقب وصوله وقد أرهق بصره بتردده بين الصفحات الماضية والخطوات العادية على الكتب، التهمت عقارب الوقت من الساعة ثلثها، فازداد انزعاجه خشية أن تفوته المحاضرة حتى عاد منصور بخجل يحمله في عينيه وهو يقود دراجته.

– ماعلش الأسطي ناجي علشان شغال لوحده إيده تقيلة في الشغل، سامحني لو اتأخرت عليك.

– مافيش داعي لأسفك، ربنا يستر وألحق ادخل المحاضرة قبل دكتور جمال.

خالط أفكاره هاجس التأخير وعواقب ربما يخشى أن تدركه لأهمية محاضرة اليوم؛ لكن لعل المعروف الذي صنعه يشفع له عند جمال بحزمه المعروف.

* * *

جلست سمر تجهز حقيبتها للعودة إلى المدينة الجامعية، وجلست إلى جوارها شقيقتها الصغرى بسمة –في السادسة من عمرها–، تطلب منها أن تشتري لها لعبة عند عودتها الخميس القادم؛ ولكن صراخ هيثم قطع الهمس الدائر بينهما فاندفعتا إلى الباب وكانت عصا والدهما الغليظة تنهال على هيثم، ولم يكن بوسع صفاء أن تدافع عنه حتى لا تنهال العصا عليها هي الأخرى.

صفاء باكية: هو عمل إيه؟

لم يعبأ ماهر بسؤالها واشتاط غضبه وكأن أحدًا بالخارج شحنه بما ألهب ثورته وغذى فيه تهوره، فأجابها بعدما كررت سؤالها مرارًا:

- علي ابن عمي شافه امبارح وهو واقف في بلكونة الأستاذ مصطفى بيشرب سجاير.

صفاء باستعطاف: طيب حرام عليك، سيبه كفاية كدا.

ماهر بعناد وغلظة: مش سايبه ولو هيموت في إيدي.

وظل يركله بقدمه وصفعه مرة بعد أخرى حتى طرحه على الأرض فأدمى روحه وشج كرامته.

انتحبت صفاء على صراخ ابنها: عشان خاطري سيبه ومش هيعمل كدا تاني.. وبعدين انت بهدلت نفسك وصدرك بينهج.

اشتد سخط ماهرعليه وظل ناقمًا على صنيعه فانهالت عليه عصاه مجددًا:

- علشان يتربى وما يعملش كدا تاني.

وقفت بسمة تبكي لحاله وصرخاته تمزق روحها، فقد كانت أكثر شقيقاته الثلاث حبًّا له.

وضع ماهر العصا من يده ووضعت صفاء يدها على هيثم تحسبًا لأي عدوان جديد وأدخلته غرفته، وعادت سمر إلى ترتيب حقيبتها ودلفت بسمة غرفة هيثم الذي ألقى بجسده على فراشه ودفن وجهه في الوسادة، وجلست إلى جواره تمسح على رأسه حتى اقتحم أبوها الغرفة فكفت يدها المذعورة.

احتد ماهر واشتد زئيره: اعمل حسابك يا حيلة أمك مافيش مصروف من النهاردا، وابقى وريني هتشتري الزفت السجاير دي منين.

وضعت بسمة يدها على ظهره فصرخ من ويلات وجعه فكفت يدها الحانية، وتمتم هيثم بكلمات فهمست أمه في أذنه «لا تدع على نفسك بالموت، إما أن تُشركني في دعائك فأموت معك أو تبقي لي أملًا تتكئ عليه أيامي».

عادت داليا من على سطح المنزل بعدما انتهت من نشر الغسيل وقد أفزعها صوت أبيها وصراخ شقيقها، فدلفت إلى غرفتها وكانت سمر تستعد للخروج وكل منهما تحمل في نفسها سخطًا وامتعاضًا من حدة أفعال والدهما وبطشه المتكرر بهيثم.

داليا بترقب: انت عندك محاضرات النهاردا؟

سمر: لا ماعنديش، أول محاضرة بكرة الساعة عشرة.

ناشدتها داليا أن تمكث معها: خلاص باتي هنا الليلة وسافري الصبح.

أنست أرواحهما ببعضها وكانت كل منهما وعاء لأفكار الأخرى وخواطرها، إلا أن سمر كانت متحفظة على حقيقة مشاعرها تجاه أشرف، فلم تُخبر داليا بشيء.

* * *

أسرع أشرف خطاه حيث جمال لايسمح لأحد بدخول المحاضرة بعده، وكما حدثته نفسه باب المدرج مغلق وقد منعه الساعي من الدخول؛ ولكن من وافر حظه أن جمال لما شرع في الشرح اكتشف بعد قليل أنه قد نسي هاتفه في السيارة وهو في انتظار مكالمة مهمة من أحد عملاء مكتبه فخرج ليُحضرهاتفه، فاقترب أشرف محاولًا الدخول، مد الساعي ذراعه في طريق أشرف:

- رايح فين؟ ممنوع الدخول.

أشرف مستعطفًا: بس الدكتور طلع واعتبره لسَّا ما جاش، وصدقني واحد كبير في سن حضرتك يا عم فرج قصدني في خدمة وما حبيتش اكسفه ودا اللي أخرني.

أطال الساعي النظر إليه وكأنه يقرأ صفحات وجهه بجهاز كشف الكذب الذي منحته له الحياة:

– ملامحك الطيبة بتقول إنك ما بتكدبش، وعمومًا جزاء الخير خير زيه..

عاد جمال إلى القاعة وأراد أن يستأنف شرحه فبادر طلابه بسؤال:

– مين آخر واحد دخل المدرج.

فانتظر أشرف قليلًا فربما يقوم غيره ثم قام هو.

جمال بترقب: اشرح لي الجزئية اللي وقفت عندها بالتفصيل.

انتاب أشرف التوتر وبدا عليه الارتباك فلو علم أنه قد دخل بعده فربما تكون العواقب وخيمة عليه وعلى الساعي، نفعه معروفه وزج به إلى القاعة وبعد خمس دقائق أكرمته أقداره مرة أخرى حتى لا يُطرد منها؛ دق هاتف جمال فتبسم وتهللت أساريره فقد كان ينتظر هذه المكالمة.

– أنا آسف يا جماعة هارد على التليفون دي مكالمة مهمة.

وأشار إلى أشرف: اتفضل اقعد.

انتهى جمال بعد ساعة من محاضرته وكان فرج في انتظاره ليخبره بأن ابنة شقيقته يتيمة، قد تربت في كنفه لموت والديها في حادث منذ عشر سنوات، وهي الآن تتجهز لعرسها.

إلى هذا الحد انتهى كلامه واستجدت عيناه وشرحت حاجته، وعي جمال رسالة تعذر إرسالها بعزة نفس فاصطحبه إلى السيارة وأعطاه مبلغًا من المال تخطى كل توقعاته.

أشرق وجه فرج وقال ممتنًّا بملء فيه: ربنا يعلي مراتبك ويعمر بيتك.

انشرح صدر جمال بالخير الذي صنعه وكست محياه ابتسامة:

– ربنا يتمم بخير وخليها تدعي لابني مازن ربنا يشفيه.

الله عز وجل يُعين من أعان الناس ويقضي له حاجته، فأراد جمال أن يقرع أبواب السماء بدعاء اليتيمة التي أحسن إليها، رجاء أن يفتح دعاؤها للإجابة أي باب.

* * *

منصور في الخمسين من عمره يعيش في شقته الصغيرة مع ابنته فاتن ذات العشرين ربيعًا، التي أنهت دراستها في العام الماضي وحصلت على ليسانس آداب قسم الفلسفة، فتاة حالمة رقيقة المشاعر ومثقفة، فقد قرأت كثيرًا من الكتب التي يتاجر بها والدها.

وضع منصور القادم توًّا جوال الكتب خلف باب الشقة التي تئن في صمت من عجزها وضعفها، وقد حاول جاهدًا أن يُخفي تجاعيد

تركها الزمان على ملامحها بفرشاة استعارها من أحد جيرانه يعمل في مجال الدهانات.

أناخ أوجاعه ببطء مع قامته وارتشف من البخاخة قليلًا لتنتظم أنفاسه، أقبلت إليه فاتن وقبلت جبينه فأمسك بكفها وقبَّله كما اعتاد أن يصنع، لم يفته هذا الأمر من يوم مولدها وكأنه يغتنم من كفها زاد روحه.

- عاملة إيه يا حبيبة بابا؟

ابتسمت فأضاءت جنبات روحه: بخير يا بابا أجيب لك العشا؟

منصور مترقبًا: طابخة إيه حلو؟

فاتن: فاصوليا ورز.

بصوت مرح داعبها منصور:

- أي حاجة بتعمليها بتبقى عسل يا أحلى شيف اسكندراني، هاصلي المغرب على ما تحضري الأكل.

انتهت فاتن من إعداد العشاء على المائدة وأعاد منصور سجادة الصلاة على أريكته التي نالت الأيام من عزمها، وجلس يتناول طعامه بنشوة وكأنه يحيا في رغد القصور، كانت مياه أحلامه ضحلة لم تتجاوز ملء جوفه بلقيمات من حلال، وأن يهب الله ابنته الزوج الصالح.

عبأ بالرضا صدره وقنَّعه الله بما آتاه وخاض رحلة الأيام منتشيًا وكأن الحياة منحته كل أوسمتها عن جدارة لجمال روحه وفرط قناعته:

- الله! الأكل من إيدك تحفة نفسك في الأكل زي والدتك الله يرحمها، أنا مش عارف لما تتجوزي هاعمل إيه من غيرك!

مازحته فاتن وهي تغمز بإحدى عينيها: ومين قال إني هاتجوز واسيبك؟

منصور متضرعًا ومبتهلًا بحلم من أجله يحيا:

- دا أنا باتمنى من ربنا يطول في عمري لحد ما افرح بيكِ وتلاقي ابن الحلال اللي يستاهلك.

عبأ صدره بأمل أن يُقاسمها فرحتها يوم عرسها وتطول به الحياة ليحمل أحفاده.

فاتن مبتهجة: على ذكر الأفراح؛ خالي مسعد اتصل بيَّ وعزمني على فرح أماني، وطلب مني اروح اقعد عندهم أسبوع قبل الفرح.

ابتسم منصور ابتسامة هادئة وانتظر حتى مضغ ما في فمه وقال:

- وفرح بنت خالك إمتى؟

أراحت فاتن يدها على المنضده وشعرت بغبطة تسري في كيانها:

- بعد أسبوعين.

حدثها منصور بحماس بالغ: إن شاء الله تروحي وتقعدي عندهم أسبوع تغيري جو، واللي هابيع بيه الأسبوع اللي جاي هاشتري بيه هدية علشان ما تروحيش بإيدك فاضية.

كانت فاتن منهكة الروح من الوحدة التي تلتهم كثيرًا من يومها حيث لا تختلط بالجيران، وقد انقطعت رويدًا صلتها بأصدقاء الدراسة، ومن فرط خجلها لم تكن تخرج من البيت إلا لحاجة.

ابتهجت لموافقته في البداية ثم بدا عليها الانزعاج:

- طيب وانت يا بابا هتعمل إيه وتاكل ازاي ومين هيرتب البيت ويشوف طلباتك؟

رمقها منصور بنظرة حانية: افرحي انتِ وانبسطي وانا هاكون مبسوط.

يعلم يقينًا أنه ليس بوسعه أن يقوم على خدمة نفسه وتلبية احتياجاته؛ ولكن من فرط حبه لها منحها ما تسعد به ورضي لنفسه بالعوز.

* * *

جلست صفاء وبناتها على أريكة في صالة البيت ليصغين إلى الحديث الدائر في غرفة الضيوف، حيث مصطفى يتحاور مع ماهر

بشأن هيثم التلميذ المجتهد رقيق الطبع الذي تبدلت أحواله فجاء يستدرك الأمر مع والده حتى لا تتفاقم الأمور ويتفادح الخطب:

– المثل بيقول إن كبر ابنك خاويه، ما تعملش حاجز بينك وبينه وقرب منه وعيش معاه سنه ووجهه للصح والخير وخلي عقابك على قد غلطه.

بدافع من الحب أتى مصطفى يزود عن هيثم همومه التي منها يعاني ويكبح عنه ثورات أبيه التي تشتعل مع أبسط المواقف، فما يستطيع المرء تقطيعه بالملعقة لا داعي أن يُحضر له سكينًا. نبهه مصطفى أن الحر تكفيه الإشارة، إنما العصا ستجعل منه شخصية ضعيفة مضطربة كالعبد الذي يفزع عند رؤية سيده.

احتد ماهر وانتفخت أوداجه وبدت عينه جاحظة كعادته في كل نقاش، فهو يُحسن الاشتعال السريع وقذائف كلماته لا تبقي ولا تذر للود مجالًا:

– أنا عمري ما شربت سيجارة، عاوزني أعرف إنه شرب سجاير ويبقى رد فعلي عادي واكلمه بالحكمة واللين وكلام الإنشا؟! الراجل المرخي ما يدخلش دماغي بتلاتة أبيض.

استشعر مصطفى أنه المعني بالجملة الأخيرة لحكمته المعهودة في معالجة الخلافات العرفية، وما يواجهه من مشكلات بتؤده دون حدة وانفعال:

- طيب من باب أولى تشوفه عمل كدا ليه.

وضع ماهر كفه على الأخرى وزفر بقوة وقال بتهكم:

- وانت شايف إنه عمل كدا ليه؟

مصطفى بهدوء: أنا سألته قال لي ضغوط وزهق من تعنيف والدي وشدته معايا.. انت بتزرع الشوك في طريقه وترغمه يمشي عليه.

سن المراهقة مرحلة حرجة تحتاج لحكمة وتروٍّ من المربي، وقبل أن يؤدب ولده خير له أن يصاحبه، وقبل أن يعنفه خير له أن يلاطفه. حول هذه الفكرة كان مصطفى يدندن.

- اللين ما بيتكسرش يا ابو هيثم، والكلمة الطيبة هتفتح لك قلب ابنك؛ لكن انت بشدتك معاه هتخليه يروح لسكة تانية.

لم يعِ ماهر الرسالة التي جاءته في طيات الكلام وأدركته الدهشة وقال متحيرًا:

- سكة تانية إيه مش واخد بالي؟

أخذ مصطفى يشرح له مراده بشجن ويدق في رأسه ناقوس الخطر ليرده عن غيه وفرط طغيانه حيث في ذلك نصرته:

- ابنك لو ما لقاش العطف والرحمة في البيت هيطلع يدورعليهم في الشارع، والشارع لا بيرحم ولا بيربي، الحكمة بتقول «على الرحيم أن يقسو أحيانًا على من يرحم» لكن ما تكونش القسوة هيَّ الطبع الغالب للمعاملة، أنا سمعت متخصص في علم التربية في أحد البرامج بيقول: أفضل أنواع التربية التربية بالحب.

في كل صباح قبلة يضعها الأب على وجه ابنه ليُشعره بمدى حبه له ويُثني على هواياته وميوله ويهتم برأيه ويستشيره في بعض الأمور ويراعي مشاعره حتى لو أخطأ، أمور من شأنها أن تملأ قلب الصبي بحب والده فلا يصنع شيئًا يستجلب غضبه أو يثير أحزانه.

لانت عريكة ماهر وأخفض رأسه قليلًا بعدما رأى جاره قد فزع لغلظته وجاء يستجدي منه عطفه على ابنه ويخاطب ما بقي من إنسانيته ليحنو عليه ويحتويه:

- وابنك هيثم نبتة طيبة، وإن كان صاحب سوء ولا ظروف خلته يشرب سجاير في السن دا؛ فالموضوع يتعالج بالحكمة علشان الخسارة ما تكونش أكبر بعد كدا.

مكث ماهر واجمًا من هذا التحذير وبدا كالذي يجلس مترقبًا توابع الزلزال ثم زفر بهدوء، وأمال رأسه للخلف وخلع الطاقية من على رأسه ووضعها على ركبته وظل يضرب عليها برفق.

* * *

استجاب مازن لرغبة أبيه وذهب معه لمنزل خاله كمال الذي أجلسه إلى جواره ووضع يده على كتفه وقبله مرارًا حيث هذه هي المرة الأولى التي يزورهم فيها بعد وفاة ضحى والدته.

جمال: عامل إيه في شغلك؟

تبسم كمال وتهلل محياه وتملكت النشوة جوارحه وقال بزهو:

- اترقيت من شهر وبقيت مدير شؤون العاملين. وانت أخبارك إيه؟

جمال: الحمد لله، كله تمام.

وجد كمال في نفسه رغبة لتكرار هذا الكلام الرتيب ليسمع بسأم إجابة قد اعتادها:

- طيب وبالنسبة لموضوع جوازك، ما خدتش أي خطوة فيه؟

بدا على جمال عدم الارتياح للخوض في سجال منهك لمشاعره دون أرباح تُذكر: موضوع الجواز بقى الكلام فيه تقريبًا كل يوم من زمايلي في الجامعة أو في المكتب.

كمال بشجن: الله يرحمها والدتك لو كانت عايشة كانت هيَّ الوحيدة اللي كانت هتقدر تأثر عليك.

وضع جمال قهوته من يده وتنهد بأسى على فقده سند روحه، فقد التحفت أمه بعد شهر بثرى زوجته، فسار في طريق أشجانه حتى كلَّ وبات الطريق إلى الأفراح مستحيلًا، فانتبذ مكانًا قصيًّا حتى لا يتأذى أحد بدخان قلبه الذي اندلعت فيه أحزانه.

وأشار إلى مازن: ادخل العب مع فارس وتغريد.

مسح وجهه بكفيه وقال بصوت يملؤه الأسى وقد تسللت من عينيه آهات مكبوتة من لوعة الفراق:

- أنا عاوز إنسانة أشوف فيها ضحى بروحها واطمن معاها على ابني وتعامله كويس، ولما ربنا يكرمها بأولاد معاملتها معاه ما تتغيرش.

فمن فرط حبه لمازن عاش الشهورالماضية مقتصدًا في مشاعره، بعدما أغلق كل الأبواب على رغباته وحاول جاهدًا أن يخفي دموعه وقال بصوت كليل:

- عمومًا الجواز نصيب ورزق مكتوب.

رق كمال لكلماته وخفق قلبه مشفقًا على حاله:

- لكن دا ما يمنعش إنك تسعى لرزقك، أنا بقدر الإمكان هاحاول ادوَّر لك على عروسة بنت حلال تعوض مازن عن حنان أمه.

لفح الحديث جليد مشاعره التي تجمدت وفاءً لعظام زوجته في قبرها، فتمنى أن تُرسل له الأقدار من تمد يدها بالنعيم لقلبه.

صمت كمال قليلًا ثم أخرج من جيبه مبلغًا من المال ومد يده ناحيته:

- اتفضل يا دكتور دول ألفين جنيه نصيب ضحى من المكتبة الشهر اللي فات.

حاول جمال أن يُعيد نفسه الشاردة إلى مرعاها وابتسم بعد جهد:

- هات بيهم «كولدير» للمسجد اللي جنب المكتبة يبقى صدقة جارية ليها.

يوم وفاتها وقف على جنازتها وقبل أن يُصلي عليها رفع صوته المتهدد ما استطاع وقال «أُشهد الله أني راضٍ عنها فقد كانت زوجة صالحة.. تُعين على أمر الدين والدنيا» ولم يتوانَ يومًا في رد إحسانها بمثله.

* * *

أخمدت سمر نور الغرفة إلا قليلًا، وكانت داليا قد سبقتها إلى الفراش، وحديث مصطفى مع أبيها قد أثمر في وجدانها حالة من النشوة.

سمر: تصبحي على خير.

مزجت داليا أصابعها ببعضها ووضعتها تحت رأسها على الوسادة وقالت بشغف:

- وانتِ من أهله، تعرفي إن كلام الأستاذ مصطفى لسَّا بيرن في دماغي؟

جلست سمر على حافة الفراش وأدلت إحدى قدميها في الأرض ووضعت الوسادة الصغيرة على ركبتيها ودارت بخلدها ذكريات جميلة مضى عليها أكثر من سبع سنين..

- مدرس لغه عربية وطول عمره متحدث لبق وهادي وحكيم في نقاشاته.

شاركتها داليا الرأي والإشادة، فكانت تحتفظ في نفسها بكفل كبير من التحية والتقدير البالغ لشخصيته المثالية:

- واحنا في الإعدادي ما كانش بيدرس لنا؛ لكن كنا بنفرح لما يدخل لنا حصة احتياطي.

انبهر طلابه بثقافته فكان في شتى مجالات الحياة يدور بحديثه ويتنقل بسرعة كعداء بارع في حارات مضماره، كلماته العذبة فتحت قلوبهم له طواعية، ومن فيض خبرته بالحياة كان دائمًا يروي عقولهم ليُحيطوا بها علمًا.

سمر بإعزاز: دا غير إنه متمكن جدًّا من مادته، دا هو اللي حببني في النحو، والأهم من كدا ربنا جعله سبب علشان يتفادى ويحل مشاكل كتيرة في المدرسة.

حنَّكته الأيام وصبغته بحكمتها، فكان خبيرًا بخبايا النفوس. أصقلته تجاربه الثرية في المدرسة والقرية وما جاورها. عذب الحديث، كان تنساب كلماته برشاقة وكأن الحياة أمدته بحكمة الفلاسفة وبلاغة الشعراء.

– ومافيش بنت اتعرضت لمعاكسة واشتكت له من الطالب اللي عاكسها إلا ويخلي الطالب يحترم نفسه من غير ضرب ولا إهانة. شخصيته المميزة فكرتني بدورالأستاذ فرجاني في فيلم «آخر الرجال المحترمين».

كان له تاريخ حافل بمواقف مورقة، كثيفة المروءة، دوَّنه أهل القرية في وجدانهم. أذهبت نخوته بزبد نفسه ومكث فيها ما ينفع الناس. ضغوط الحياة لم تسحب رصيد الإنسان بداخله فكان ملجأ وحصنًا لكل من يأوي إليه. عاش عونًا لغيره، يُطعم الفقير ويقف إلى جوار المنكوبين ويُصلح ذات بينهم، ويربأ صدع الخلافات بين الرجل وصهره أو الجار وجاره، كان يستر ولا يفضح، وينصح ولا يجرح.

أثمرت كلمات سمر في روعها حالة من النشوة فقالت بكلف:

- يا بخت مراته بيه.

سمر مازحة: هل دق الحب بابك؟

انتاب داليا شعور لم تقف على حقيقته أو تتبين ملامحه: أصله حنين قوي!

تبسمت سمر وربتت على كتفها:

- طيب نامي يا حنينة علشان أنا مسافرة الصبح.

افتقدت داليا عطف والدها وخشيت أن يكون حظها في زوجها تعسًا كذلك، فلم تنشد في فارس الأحلام إلا ما افتقدته ليهنأ قلبها بإحسانه ويلتحف بعطفه وحنانه، وكانت شخصية مصطفى الخيالية قوية في غيرعنف، فقد أينعت شجرة الرحمة في قلبه فاغترف من ظلها من حوله.

* * *

اقتربت الشمس من مغيبها، وأوشك نهار شاق أن ينتهي بعد عدة محاضرات وساعات أمضاها في إعداد مشروع التخرج، بخطًى مجهدة سلك طريق عودته إلى مسكنه فوجد منصور يضع الكتب في جوال فساعده في ذلك.

تفحص أشرف ملامحه التي بدت عليها مسحة من وجع:

- انت شكلك مش عاجبني النهاردا.

أخذ منصور نفسًا عميقًا وقال بصوت عليل:

- أصل جات لي كرشة نفس الضهر.

أشرف بدهشة: وما خدتش علاجك ليه من الأول؟

تحدث منصور بمضض حيث لم يعتد شكوى فقره أو بث أوجاعه لأحد:

- أصل البخاخة خلصت وما كنتش لسَّا بعت حاجة لحد ربنا ما صلح الحال واشتريتها العصر.

حركت مقطوعة الشجن التي رواها في نفس أشرف رحى مشاعره، فرق لحاله:

- ألف سلامة عليك، والله الدنيا لما تنعدل معايا لاعمل معاك الصح، بس ليه مفيش حد من قرايبك بيساعدك؟

أحس منصور بشجًى، فقد افتقد من يشد عضده بهم ويأنس بقربهم وينفعه إحسانهم:

- أنا وحداني وأبويا الله يرحمه كان وحداني.

وضع معه الجوال على الدراجة وظل يرمقه حتى غاب في الزحام.

مع فارق السن وتفاوت مستوى التعليم جمعت بينهما صداقة جميلة، منذ أن قدم أشرف إلى الاسكندرية وحديثه في الترام مع أحد الركاب عن بحثه عن سكن وجذب منصور طرف الحوار ناحيته ودله على الغرفة التي يقطنها وألح على صاحب البيت في تخفيض الإيجار وأن لا يطلب منه أي مبلغ مقدم، فكان أشرف يحفظ له في نفسه هذا الصنيع وتوطدت المودة بينهما في السنوات الخمس الماضية.

صعد أشرف السلم حتى انتهى إلى غرفته، بدَّل ملابسه وأعد لنفسه كوب شاي تناوله مع بعض الكعك الذي أعدته له والدته، ولما انتهى قام وصلى المغرب وقرأ الفصل الأخير في الرواية التي أعاره منصور إياها، وتناول هدية سمر له في ذكرى ميلاده وقبلها منتشيًا وأعادها إلى المكتب، ومكث يرسم بعض الطيور ومناظر طبيعية إشباعًا لرغبة تجتاحه وهواية تشق في نفسه مسلكًا كل حين، ثم ذاكر دروسه حتى غلب النوم عينيه.

* * *

خرجت صفاء من المطبخ وهي تحمل الطعام لهيثم. طبق أرز وطبق حساء به قطعة لحم، وقبل أن تدق على الباب أشارت لبسمة التي كانت تتابع التلفاز حيث أفلام الكرتون التي تعشقها.

– أنا عارفة هيثم بيحبك وبيسمع كلامك، اقعدي معاه لحد ما ياكل ولو مش عايز ياكل اتحايلي عليه..

دلفت بسمة إلى غرفة هيثم ووضعت الطعام على المنضدة وجلست بجواره على أريكته تتأمل أحزان وجهه وعمق جراحه التي تجلت في عينيه. ربتت على كتفه:

– مش انت بتحبني؟ يبقى تاكل من إيدي.

انتابه السخط وأدمت سياط أبيه مشاعره وتصبب وجهه حسرةً وألمًا:

– صدقيني يا بسمة ماليش نفس.

بسمة بشفقة: ليه قاعد على طول في أوضتك وشكلك زعلان؟ اطلع العب معايا ونركب سوا المرجيحة.

زفر هيثم بحدة ليُزيح خارجه أكوامًا من الغم استوطنت فؤاده الصغير:

– أنا زهقان يا بسمة، ولما ابقى رايق هالعب معاكِ.

لم تبقَ في العين دمعة بعدما عصرتها أوجاعه فتراكمت على نفسه الضغوط وضجرت أنفاسه في صدره، ولم يرَ حوله ولو نفقًا واحدًا تعبر منه السعادة كسلعة مهربة فجلس ينوح على صباه.

عطفًا على حاله ناشدته بسمة:

- طيب بلاش تلعب معايا بس اضحك وبلاش تبقى زعلان وبتنفخ.

هيثم بضجر: أضحك ازاي وانا قلبي بيبكي وجوايا هم وغم يكفي البلد والمركز كله؟

لم تدرك بسمة جرح كرامته فتعجبت من معاناته:

- كل دا علشان بابا ضربك بالعصاية!

صنعت عصا أبيه شرخًا غائرًا في نفسه، فبدا ساخطًا يحمل في صدره أوجاع كل المقهورين:

- ويضربني ليه؟

رمقته بسمة بنظرة استهجان: داليا قالت إنك غلطان علشان شربت سجاير.

أخفض هيثم رأسه خجلًا من صنيعه ثم رفعها واحتد صوته:

- يعرفني غلطي بالراحة ويتكلم معايا ويفهمني، وبعدين أصلًا هوَّ اللي مزهقني كل شوية ضرب وإهانة، دا حتى فين وفين لما يناديني باسمي، كل شوية يا مايل يا حيلة أمك.

جروح وندبات كثيرة تركتها قسوة أبيه في نفسه فصار محطمًا ينتابه شعور بالعجز والهوان الذي لم ترضه نفسه.

مسحت بسمة على رأسه وودت لو مسحت عن قلبه أوجاعه:

– طيب انا هاقول لبابا إنك زعلان منه وهاخليه يناديك باسمك وما يضربكش تاني، اضحك بقى علشان وانت زعلان انا بابقى زعلانة أنا كمان.

لم تُفلح محاولات بسمة هذه المرة كسابق عهدها في محو أحزانه، وظل على حاله ساخطًا:

– أبوكِ طبعه كدا وعمره ما هيتغير، ومافيش غير حل واحد فكرت فيه وناوي أعمله.

بسمة متعجبة: انت عايز تعمل إيه؟

رمق هيثم أرجاء الغرفة وكأنه يودعها: أسيب البيت وامشي..

أينعت عصا أبيه الغليظة في أعماقه جذور التمرد وجعلته يرفع راية العصيان بكلتا يديه، أبت نفسه جحيم بيته وظن بالخارج ينتظره النعيم.

بسمة ببراءة: خلاص لو مشيت من البيت خدني معاك.

احتشدت روحه بالظلام الدامس الذي نثره أبوه في حياته فلم يكد يرى يد والدته الحانية في زخم معاناته وهي تتعسس لتتفقده وتربت على كتفه، وبمضي الأيام رويدًا اكفهر وجه أمانيه فقرر الرحيل بعدما استبدت بالرأي أحزانه:

– أنا كفاية اشيل هم نفسي ويا عالم هاواجه مصيري ازاي، وبعدين انتِ بنت ما ينفعش تطلعي من البيت، ومش عاوز أعاقبك على حبك ليَّ في بيت حتى جدرانه بتكرهني.

هكذا ظن أنهم أجمعوا أمرهم على بغضه، فبعضهم ظلمه وبعضهم اكتفي بالشجب والإدانة، حين خرج عليهم بثوب المظلوم ونسي أن نصيبهم من الظلم واحد وإن اختلف المكيال، من بين أصابع الحياة انسابت أحلامه قهرًا وغصبًا وتبددت بداخله كل رغبة، ولم يبقَ له إلا رغبة واحدة، فهيأ للوداع قلبه وعزم على الرحيل بعد عراك اشتبكت فيه أفكاره فمكث يتحين الفرصة ليفرمن سياط أبيه.

❊ ❊ ❊

وضع ماهر ساعة يده إلى جواره وجلس معتدلًا في فراشه ثم قام وفتح النافذة قليلًا

حيث الليلة صيفية حارة، واستلقى على ظهره ولم يُسلم للنوم عينيه حتى أتت زوجته بعدما أغلقت باب حظيرة الدواجن وباب سور المنزل:

– اعملي حسابك جاي لنا ضيوف بعد بكرة.

قالت صفاء في لهفة: ضيوف مين؟

قد بدا عليه السرور وهو يزف لها هذه البشرى:

- علي ابن عمي جاي واخواته معاه وخاله الحج سعد علشان يخطبوا داليا لعلي.

أصابت صفاء دهشة وبقي فمها فارغًا ثم هزت رأسها برفق لتسترد وعيها:

- بالسرعة دي؟!

ماهر محدقًا لها بعينيه:

- سرعة إيه؟ يا دوب هنقرا الفاتحة واتفقت معاهم الفرح بعد ست شهور.

أغلب صوتها كان شجًى وهمًّا قد اشتد عوده:

- طيب مش كنت استنيت قبل ما تتفق على كل حاجة لحد ما تسأل صاحبة الشأن الأول؟

رفع ماهر رأسه عن الوسادة وأشاح بيده في وجهها وتعالى صوته وقد بدا شرسًا كقط مشاكس رافضًا مزاحمة أي رأي آخر لرأيه:

- وهيَّ هتعرف مصلحتها أكتر مني ولا يكون لها رأي بعد رأيي؟ دا تبقى الدنيا جابت آخرها.

شعرت صفاء بامتعاض وافترش السخط وجهها وطل الحزن من عينيها وخلعت غطاء رأسها وألقته على الأرض فقد التهبت أفكارها بهذا الخبر الصادم:

- بس داليا متعلمة تعليم عالي وعلي...

تطايرالغضب من عيني ماهر وقد اعتدل في جلسته وقاطعها بصوت مفزع وكاد فراشه يهوي بهما من حدته:

- الراجل ما يعيبوش إلا جيبه، وعلي سيد الرجالة، وبعدين أنا اديت للناس كلمة والموضوع انتهى، وانا مش باقول لك علشان آخد رأيك؛ أنا باعرفك علشان البيت يبقى جاهز لاستقبال الضيوف.

بدا على صفاء الإذعان للأمر، فلم يكن بوسعها أن تراجعه أو تمشي عكس تياره، فانحنت قليلًا لتمر العاصفة بهدوء واصطفت في معسكره لتحمي نفسها من بطشه:

- هيا بنتي لوحدي ولا أنا هاخاف عليها أكتر منك؟ أنا عاوزة ربنا يسعدها وخلاص.

تظاهر ماهر بالهدوء وهز رأسه برفق وهو مغمض العينين وقال:

- وسعادتها مع علي ابن عمي.

لم يكن ماهر ليلقي باله بتوافق الأرواح أو يشغل خاطره بتقدير المشاعر، فأراد أن يُغمي عينيها ويسوقها إلى بيت ابن عمه حتى لو كانت مسلوبة الإرادة والوجدان.

شردت صفاء بفكرها في اتجاه آخر حيث قنبلة ربما كانت على وشك الانفجار:

- فيه حاجة مهمة عاوزاك تعرفها واتصرف فيها بمعرفتك بس عشان خاطري اتعامل بالراحة شوية وخلي بالك طويل.

ماهر بترقب: حاجة إيه؟ فهميني..

ازداد همها همًّا وشعرت بأسى يتدفق في حناياها بغير رفق فقالت بكمد:

- بسمة قالت لي لما هيثم يمشي من البيت أنا هامشي معاه.

ماهر مندهشًا: يمشي يروح فين؟

فزعت كلمات صفاء واستغاثت به لينقذ الموقف ويتجنب الجميع ويلات مريرة:

- هو قال لها إنه هيسيب البيت، وأنا خايفة أحسن الواد يكون بيتكلم بجد ويهرب.

فكر ماهر مليًّا ثم قال بعد صمت:

– ما تخافيش، هو مش هيعمل حاجة..

رفض مجرد الظن أن يكون لابنه حق الاستنكار فيغامر ويرتكب هذه الحماقة؛ ولكن ماحدث البارحة كان أشبه بقشة قصمت ظهر الذي يحسبه بعيره.

لم يكد يسلم قلبها من بطش لكمته السابقة حتى داهمت عقلها ظنون سوداء، فساورها القلق مما يُخبئ لهم الغد:

– وافرض هرب بجد زي ما بيقول؟

استخف ماهر بالأمر وظن أن الأمور لن تخرج أبدًا عن قبضته المُحكمة:

– سهلة.. قفل بخمسة جنيه على باب أوضته لحد ما يعقل ودماغه تنعدل.

لم يعد يبالي بتحذير مصطفى له من قبل أو فزع زوجته وهي تحدثه، ولم يلجأ لحيلة يتدارك بها الموقف إلا بالحديد والأغلال حيث سياسته المفضلة في التعامل بالعصا، فلم يكن يملك الجزرة ولم يناشد نفسه الجامحة بالتروي وعقد هدنة تهدأ بها جنبات البيت حتى لا يتلظى أحد بنيران صديقة.

* * *

بدأت امتحانات نهاية العام وكان أشرف لا يدخر جهدًا في المذاكرة وقد كف عن طهي الطعام بنفسه ليلملم أوقاته وينفقها على متابعة دروسه، وفي طريق عودته من المطعم القريب إلى مسكنه وجد منصور يجلس منزويًا وقد أسند رأسه إلى الحائط.

فزع للحالة التي بدا عليها صاحبه: ما لك يا عم منصور؟ شكلك مش بخير!

منصور بصوت متقطع: تعبان شوية صدري طابق عليَّ.

مد أشرف يده إليه وأشفق على حاله: قوم أروحك وبارك الله فيما رزق لحد كدا..

أسند منصور ظهره إلى الحائط ووضع يده على صدره وكأنه يبحث عن هواء يزجه بداخله لتنتظم أنفاسه، انتهى أشرف من جمع الكتب في جوال وربطه جيدًا ووضعه على الدراجة.

غمره أشرف بعطفه وذراعه: تعالى يا عم منصور جنبي وانا هاسندك بدراعي اليمين وبدراعي الشمال هاسوق العجلة.

كان منصور يحرك قدميه ببطء، وكان أشرف يُجاريه في ذلك حتى انتهيا إلى منزله، وضع أشرف الدراجة في «بير السلم» وقيدها بالجنزير، وبأنفاس متقطعة صعد منصور السلم وأشرف يحيطه بذراعه وجوال الكتب بيده الأخرى: أخبط على الباب علشان فاتن تفتح؟

كابد منصور أوجاعه وقال بصوت متهدد:

- فاتن... التقط أنفاسه...فاتن فاتن مش هنا، راحت فرح بنت خالها.

حين افتقد إكسير حياته وزاد روحه من كفها تحينت أوجاعه الفرصة لتصرعه، وبصعوبة وجهد أخرج المفتاح من جيبه. فتح أشرف الباب ودلف به إلى غرفة نومه وأسلمه إلى فراشه.

تأمل أشرف ملامحه الشاحبة، فاغتم وكأن الحزن شطر قلبه نصفين، فقد ضن عليه صدره بالسكينة، وتمردت عليه أنفاسه وكأن شبحًا يُطاردها، فلهثت بقوة وامتقع لونه وصُبغت شفتاه بزرقه وبدت عيناه كجمرتين، وكأن أحداث النهاية نزلت به لتجره بقوة إلى قبره.

أشار إلى أشرف بشيء لم يعِه فقال بصوت متقطع:

- الدوا جنب التلفزيون.

وضع منصور بخاخة الدواء من يده وبدأ يعود إلى الدنيا بتريث، وضع أشرف كفه على جبينه ومسح عنه قطرات وجعه:

- أنا هابقى كويس دلوقتي وبكرة وانت طالع من الامتحان عدي اطمن عليَّ.

أعاد أشرف قلبه المخلوع إلى موضعه ومكث معه حتى استكانت أنفاسه ودبت الحياة بين ضلوعه، فألح عليه منصور أن يعود لمسكنه ليراجع دروسه فقد اعتاد مثل هذه النوبات التي تنتهي بسلام كل مرة.

* * *

لم تكن صفاء مقتنعة بعليٍّ خاطبًا لابنتها؛ ولكنها تظاهرت بالترحيب بالأمر وهي تلج غرفتها لتخبرها فاصطنعت ابتسامة زائفة:

– مبروك يا داليا، جالك عريس.

داليا بتوتر: مين العريس دا؟!

حاولت صفاء جاهدة أن تتكلم بملء فيها وقالت في زهو:

– علي ابن عم ابوكِ، زينة شباب البلد.

اجتاحها الضجر فور سماعها اسمه حتى اختنقت وبدت عيناها كلوحة جميلة تحترق:

– دا ساقط إعدادية وانا معايا بكالوريوس تجارة!

ردت صفاء بعبارة صارت ماركة مسجلة في الريف المصري:

– يا بنتي الراجل شاريكِ والعلام مش كل حاجة.

احتد صوت داليا وقالت بتذمر وغضب:

– يا ماما افهميني، مافيش توافق في الطباع ولا كفاءة في التعليم، وانا مش بايرة ولا عاملة عملة علشان تبيعوني بالطريقة دي!

حاولت صفاء أن تُقنعها برفق وتلطف:

– يعني لما تتجوزي راجل شاريكِ وظروفه مرتاحة نبقى بنبيعك؟ دا كفايه إنك هتبقي معانا في البلد وكل شوية نطمن عليكِ، دا ليلى بنت عمتك متجوزة في رشيد، فين وفين لما أهلها بيزوروها..

شعرت داليا بتأفف وسخط يفترش اليابس من الأرض:

– يعني الرجالة خلصت من البلد ومش باقي غير علي!

أثناء دراستها الجامعية لم تتعلق بأحد، فقد كانت متحفظة وتدرعت بالحياء وضنت بمشاعرها حتى على من أدمن طرق قلبها؛ ولكن هذا الخاطب جاء ولم يطرق الباب، بل حاول تحطيمه! فقد كانت بطبيعتها تبغضه حتى النخاع.

– دا لما بيصادف ويركب معانا الميكروباص بابقى مخنوقة من تقل دمه وطريقة كلامه، دا الأسبوع اللي فات شُفته راكب حصانه وبيلف في البلد فضلت زهقانة طول اليوم!!

إلى هذا المدى كانت تشمئز مشاعرها منه ولم يكن بوسعها أن تحتمل وجوده في سفر قصير؛ فكيف لسنوات عمرها أن تحيا بجواره وتبقى جوارحها رهن إشارته؟!

حاولت صفاء أن تروض المشاعرالنافرة لابنتها.

– الحب هييجي بعد الجواز واسمعي يا بنت بطني، أبوكِ عطى للناس كلمة، والكمال لله ومافيش حد بيخلا من العيوب، وعلي أحسن من غيره.

شعرت بدوار شديد وداهمها إحساس بالحسرة ممزوجٌ بالاستياء والغضب والامتعاض، وكل مرادفاته في اللغة تقف عاجزة عن وصف مقتها له:

– أنا لازم يبقالي رأي في شريك حياتي، وبعدين انتم مستعجلين على جوازي ليه؟ ولا زهقتم مني ومن قعدتي في البيت؟ دا أنا لسَّا مخلصة كلية السنة اللي فاتت..

شعرت بخنجر حاد يتسلل إلى أعماقها ليقتل أمانيها بفارس الأحلام الذي ادخرت له كل مشاعرها منذ أن تبلورت أنوثتها، فلم تكن تبالي بنظرات الإعجاب وكلمات الغزل.

ألقت صفاء آخر ما في جعبتها لعل ابنتها تستكين:

– تعرفي وانا قدك كنت مخلفاكِ وحامل في سمر؟

ناشدتها داليا بل وعدتها وهي عازمة على الصدق:

– يا ماما علشان خاطري بلاش علي، وأول عريس يتقدم لي بعديه هاوافق عليه..

ودت لوكان بوسعها أن تُغمض عينيها وتختارمن الدنيا سواه فكم تكرهه نفسها وتأباه. أشفقت صفاء عليها من بطش أبيها الذي بات الأمر منتهيًا بالنسبة له:

– يا داليا يا حبيبتي اسمعي كلامي. علي قريبنا وهو أولى بيكِ.

داليا بإنكار: هو أنا بيت قديم بيتباع ولا حتة أرض وهو أولى بيَّ علشان الجيرة والقرابة.

وما جدوى الكلام مع والدتها وقد أصدر والدها «فرمان» بقهر كل أحلامها وفرض حظر تجوال على مشاعرها، فتسللت دموعها واحدة تلو الأخرى كعقد انفرطت حباته.

صفاء بحزم: بكرة الناس جايين، ابقي جهزي نفسك وافردي وشك قدامهم.

أغلقت صفاء الباب خلفها بعنف فاهتز كيانها المتصدع من هول الفاجعة. ظلام دامس حلَّ بروحها حين حرمها أبوها حق اقتراع الوالي على قلبها. حسرة تلظت بأحشائها من فرط بغضها لهذا الخاطب الذي استباح مواني عمرها فتعطلت رحلتها، ودت لو صرخت كفوا أيديكم عن قلبي فليس هذا ما كانت تحلم به؛ فقد كانت ترجو لنفسها السعادة وتحلم بالنعيم مع روح تشبهها، فجاء هذا الفظ الذي لا

تطيقه ليُخمد جذوة الأحلام ويقتل أمانيها وربما لا يأبه والدها لسخطها ويكمم مشاعرها ويزج بها عنوة في الجحيم..

* * *

عاد أشرف من الجامعة منتشيًا فقد كان اختبار اليوم سلسلًا، وهكذا كانت الاختبارات السابقة حيث تفرغه التام لمذاكرته قاده إلى تلك النشوة ولم تبقَ إلا مادة واحدة سيخوض اختبارها في الغد. ليلة واحدة تحول بينه وبين ما ينشده، أسلم عينيه للنوم ساعة ولما استيقظ قضى صلاته الفائتة وشرع في المذاكرة، ثم تذكر وصية منصور أن يزوره خاصة أنه لم يرَه اليوم كما اعتاد، فأكمل مذاكرته وقرر تأجيل الزيارة للغد، وبعد دقائق نهض من على مكتبه وقرر الذهاب إلى بيت منصور، شيء بداخله حثه على ذلك فالرجل مريض وابنته قد غابت.

دق الباب مرارًا فلم يجبه أحد، فأدار ظهره ليرجع فسمع صوته المتهدد يناديه.

فدق الباب مرة ومرتين وبعنف ولم يعد الصوت يأتيه، فعاد خطوة للخلف واندفع بقوة تجاه الباب الذي لم يصمد أمام صلابة كتفه

فوجد منصور مستلقيًا على الأرض في محاولة منه ليصل إلى الباب ليستغيث بجيرانه، تحشرجت أنفاسه في صدره، فزع أشرف لحاله

فحمله على عاتقه ونزل به الدرج مسرعًا، استوقف سيارة أجرة حتى وصل إلى مستشفى قريب، وفي الاستقبال قرر الأطباء إيداعه في العناية المركزة. فكر في العودة لسكنه ليراجع دروسه فقد انتهى دوره بعدما ساقه القدر إلى بيت منصور في هذه الساعة لينقذه، سأل أحد الأطباء عن الحالة فأخبره أنها غير مطمئنة، فاستشرى الخوف بضلوعه على صديقه تارة وعلى امتحان الصباح تارة أخرى، حيرة غرق فيها إلى أذنيه، نبعه الريفي الأصيل بقي يشد على يديه منبهرًا بصنيعه، ورغبته في النجاح تحاول زعزعة أقدامه الراسخة على أرض الوفاء.

دارت بخلده أسوأ الاحتمالات؛ ماذا لو مات صديقه ولا يعلم له صاحبًا ولايعرف له قريبًا كي يخبره بأمره؟ تحامل على مروءته وأكمل ليلته، تفاقمت حالة منصور ودام حوله كر وفر من الأطباء والتمريض، ولم تستقر أنفاسه إلا بعد الفجر، وفي مسجد المستشفى جلس يقرأ أذكاره بعدما صلى ثم عاد واطمأن على صديقه الذي هدأت حالته فسار والقلق قد انتابه على الاختبار الذي سيحين موعده بعد قليل.

* * *

اشتد بها الهم فمكثت في غرفتها شاحبة الوجه خافتة الروح، ظلام كالح يملأ غرفتها رغم نورها المشتعل، هكذا كانت الدنيا في عينيها، ظلمات بعضها فوق بعض، خطب جلل داهم أرجاءها من وقع هذا الخاطب المنبوذ، أبت نفسها أن تخيط لها ثوب عمرها يد تمقتها.

ماذا بوسعها أن تصنع لتدفع عن نفسها ما تكره؟ غاصت في بحور الحيرة، أربكتها الصدمة ففقدت توازن روحها المثقلة بهموم تسع طباق الأرض، في سجن ليس له أبواب، تخيلت حياتها معه فلماذا ترضَ بالجحيم؟ هاتفت قريبًا لها تحتمي به وتختبئ خلف ظهره من وابل صواعق قذفتها بها الأيام، فزاد همها همًّا وذكَّرها برأس أبيها المتحجر، وكأن الأمر انتهى. أبت نفسها حياة الانكسار ورفضت كل صور الهزيمة لأحلامها، فكرت في حيلة لتفلت من القبضة المحكمة على مصيرها، فدعت وتضرعت أن يقيها الله شر هذه الزيجة، وأن يرفع عنها هذا البلاء، اتصلت بسمر لتشاركها الرأي فشاركتها الدموع حيث لا جدوى مع طغيان أبيها وتسلط رأيه، فالقبر بديل ما تأباه.

أوجع قلبها سياط الجور فتعكر وجهها وبدت كطفلة تركها أهلها في الصحراء فجلست تتنظر الموت.

دغدغ الهم كيانها المتصدع، صهرتها نار القهر حتى تلاشت روحها، فتت معاول الوجع أطلال قلبها فاختنقت أنفاسها ولم يعد بوسعها أن تصل لباب يُخرجها من محنتها، ولم تعِ خطى الأحداث من حولها كيف تسير، فتصلبت أفكارها وكأن سياجًا فرضت حصارًا على رأسها فلم تعد تمده بما فيه غوثها، فهل تجازف وتخبر والدها برفضها لتقطع الطريق على حياة التحطم التي تمقتها؟ فهذه الزيجة أسوأ من أي عقاب تنتظره؛ ولكن ربما جمع أبوها بين كل ما تخشاه فيجلد ظهرها ويمرغ قلبها في التراب. ولكن بقي لها حل آخر.

وظلت تردد في نفسها «آخر العلاج الكي» وقفت أمام المرآة وكأنها ترمقها بنظرة الوداع، تأملت خزانة ملابسها وحقيبتها الفارغة فقررت أن تلملم فيها ما بقي من أيام عمرها وتهرب من جحيم البيت إلى آخر ينتظرها بالشارع.

وحل وعار سيلحق بها وبأهلها للأبد، فمكثت تفكر وصار رأسها ساحة لصراع وتلاحم بين أراء شتى، حتى تلظت رأسها واكتوت أفكارها فأشفقت على نفسها وأغلقت الحقيبة ووضعتها جانبًا واستعاذت من وساوس الشيطان.

ولكن تبقى الأزمة جاثمة؛ فكيف تصول في معركتها أو تصمد وحدها؟ هل تكتفي بالشجب والإدانة وتسجِّل تذمرها بدموع لا تملك غيرها وترتضي الطعنة وتسيرمقتولة إلى الهاوية؟

ودت لو فتحت النافذة وصرخت واستجارت بالخلق ليمدوا لها يد العون وينزعوا الشوك من حلق أحلامها التي ما كفت عن الصراخ، أعياها البحث عن حيلة، ما تركت بابًا إلا دقت عليه، أفكارها كانت جميعها موصدة وبقي لها باب واحد فتسللت من بيتها وذهبت لتدق عليه.

* * *

وضع جمال الأكياس التي معه في المطبخ، ثم دلف إلى غرفة مازن، فتح الباب ببطء فوجده قد افترش سجادة الصلاة ويطيل في سجوده كما كانت تفعل والدته، فانتظره حتى انتهي من صلاته وقبَّل كفه الصغيرة وقال وهو يبتسم:

- أنا مبسوط منك علشان رجعت تصلي، وعاوزك تدعي ربنا علشان ترجع تتكلم زي الأول، وأنا حاسس إني هاسمع صوتك قريب.

ثم عاد إلى المطبخ وأفرغ ما في الأكياس وقام بغسل الأطباق التي كانت شاهدة على عشاء الأمس، وحاول في عجالة أن يعيد البيت إلى رونقه.

وضع الطعام الذي أحضره على المائدة وكان يرمق مازن بين الحين والآخر وهو يأكل إلى جواره:

- أنا عاوز آخد رأيك في موضوع..

رفع مازن بصره عن طعامه وصرفه ناحية والده. رمقه جمال ليرى ردة فعله على فكرته التي سيطرحها على مائدة التفاوض:

- عاوز أجيب واحدة ست ترتب البيت وتغسل هدومنا وتعمل لنا أكل بيتي جميل.

مازن أشار بيديه: وبالليل هتمشي؟

تعثرت حروف جمال وتلعثمت أفكاره بعدما فاجأه مازن بسؤاله فكسا الخجل كلماته: مش ضروري تروَّح، ممكن تبات معانا.

أشار مازن إلى غرفته وغرفة أبيه تظاهر جمال بعدم اكتراثه بهذا الأمر.

- مش فارقة تنام فين؛ لكن غالبًا هتنام في أوضتي، المهم حد يرعى البيت.

كانت معاناة جمال قد أنهكت قواه حيث أعباء البيت وقد تكفل بها طواعية إلى جانب وطأة العمل في الجامعة، ويترقب عمله في المكتب ما بقي من قواه لينهشها.

أشار مازن بالموافقة على طلب أبيه؛ ولكن أبى أن تنام في غرفة والده. من فرط حب مازن لأمه لم يحتمل أن يرى من تأخذ مكانها في البيت وفي حياة أبيه، ولم يجد جمال سبيلًا لإقناعه فلاذ بالصمت على مضض وظل يتلفت حوله وكأن البيت صار أودية من يأس وذبول، فالبيت لا غنى له عن ربة تحمل همه وأنامل تتعهده بالرعاية؛ ولكن مازن أغلق عليه كل طرق الاختيار، فعادت إلى المربع الخالي أفكاره وردد في نفسه ليبث فيها الطمأنينة «فرج الله قريب فلا تنامن إلا خالي البالِ».

* * *

مصطفى يعيش في بيته في جو مفعم بالسعادة وراحة البال مع ابنه محمد وقد تجاوز العاشرة وزوجته تهاني.

هادئ الطبع، ندي الكف، صاحب مروءة، لا يتوانى عن مساعدة من حوله، يقضي نهاره في المدرسه ثم الدروس الخصوصية، وفي المساء يتابع بعض البرامج الهادفة التي تُثري ثقافته وتنمي خبراته.

كانت زوجته تجلس إلى جواره عندما دق الباب، فقام محمد ليفتح الباب لطارقه على استحياء. بدا عليها توتر شديد وشحوب سرق نضرة وجهها:

- الأستاذ مصطفى موجود؟

محمد: موجود اتفضلي.

توجهت له بالشكر: ممكن تبلغه إني عايزة أستشيره في حاجة.

وضعت يدها على كفها وعيناها لا تبرحان الأرض، ثم التفتت ونظرت خلفها تراقب هل من أحد يراها.

قام مصطفى من مجلسه واقترب من الباب:

- اتفضلي يا داليا.

فركت يدها ببعضها واضطربت كلماتها خجلًا وقالت:

- أنا مش عارفة أقول إيه لحضرتك أو أبدأ كلامي ازاي، ومش عارفه اللي عملته صح ولا غلط.

صمتت قليلًا وكأنها تُعيد حساباتها من جديد لترى الصورة من زواية مختلفة:

- خلاص مافيش حاجة أنا مروحة.

وتسمرت قدماها وبقيت واقفة في شموخ مزيف. أصابت مصطفى الدهشة من صنيعها.

– ما اعتقدش إنك جاية لحد هنا علشان تقولي أنا مروحة. أكيد فيه سبب لزيارتك.

توتر نبضها وأربكتها الحيرة واضطربت أنفاسها وحاولت أن تلملم شتات نفسها وقالت:

– فيه موضوع يخصني عاوزة حضرتك تساعدني فيه، بس لو ينفع نتكلم جوَّا

مصطفى مستعلمًا: أبوكِ عارف إنك جاية عندنا؟

داليا: لأ ما يعرفش، لما ندخل جوَّا هاحكي لحضرتك.

مصطفى مرحبًا: اتفضلي في أوضة الجلوس.

دلفت داليا غرفة الجلوس بعدما رحبت بها تهاني وجلست إلى جوارها، طال صمت داليا فتيقن مصطفى أن وجود زوجته بمثابة سياج حديدية على فمها.

– لو سمحتِ يا أم محمد اعملي اتنين شاي وخلي الباب مفتوح وابعتي الشاي مع محمد. ثم نظر إلى داليا وهي تجلس مرتعشة اليدين شاحبة الروح:

– أظن دلوقتي تقدري تتكلمي براحتك، خير فيه إيه؟

تنهدت بحزن وقالت: أنا... ثم بكت... ولم يعد بوسعها الكلام، شقت دموعها التي لم تألفها من قبل مجرى دائمًا لها على وجنتيها.

أشفق مصطفى على انكسارها وأيقن بفداحة الخطب وقال:

– استهدي بالله وبالراحة وبطلي عياط علشان أعرف فيه إيه.

حاولت أن تلملم شعث روحها وتبحث بداخلها عن حروف هاربة تُكمل بها عزف مقطوعة الشجن التي ترويها:

– في الشرع يا أستاذ مصطفى البنت تتجوزمن غير رأيها؟

مصطفى مستنكرًا: لأ طبعًا، البكر تُستأذن.

مسحت داليا دموعها بمنديل مد به كفه وبقيت دموع قلبها تنهمر وقالت:

– علي ابن عم والدي جاي الليلة يقرا فاتحتي، وبصراحة أنا مش طايقاه ودا آخر واحد أفكر اتجوزه..

وقف مصطفى على حقيقة الموضوع الذي من أجله أتت:

– معنى كلامك إنك رافضة علي لشخصه مش مبدأ الجواز نفسه.

أومأت داليا برأسها وهي تخاطب مروءته بدموعها وتستجير بحق الجوار:

– بصراحة مش طايقاه ومافيش توافق بينْنَا في أي حاجة.

أراد مصطفى بحكمته في الحوار أن يُسدي لها نصيحة:

– انتِ ما تعرفيهوش عن قرب، كُنتِ صبرتِ بعد الخطوبة بشهر ربما تقتنعي بيه، أو لما ترفضيه يبقى عن اقتناع كامل.

داليا بصوت باكِ: أبويا حدد معاه الفرح بعد ست شهور وكأنه حسم الأمر معاه. وأبويا طبعه حامي وما بيسمعش لحد.

مصطفى مخفيًا استياءه: طيب ليه ما رُحتيش بيت خالك زكريا؟

شعرت داليا بحزن بالغ وكمد يسري في عروقها:

- كلمته في التليفون قال لي أبوكِ دماغه ناشفة ومافيش فايدة في الكلام معاه.

استشعر مصطفى حرج الموقف الذي وضعته داليا فيه:

- حد شافك وانتِ طالعة من بيتكم؟

أومأت داليا برأسها أن: لا، ماما كانت في المطبخ ووالدي قاعد مع الضيوف.

مصطفى راجيًا: طيب ممكن ترجعي، أنا خايف عليكِ من عواقب وخيمة.

داليا أحست به يتفلت من مد كف المعونة لها فقالت:

- أنا جيت أستنجد بيك ومش عاوزة أندم إني دخلت بيتك.

تناول مصطفى كوب الشاي الذي وضعه ابنه وارتشف منه قليلًا:

- اتفضلي الشاي.

داليا: شكرًا، ماليش نفس.

جفت الدموع من عينيها وطل منها شبح الهزيمة واجتاح كيانها شعور بالضعف والعجز، وتذكرت وأد الجاهلية في التراب وصرخت في أعماقها بأي ذنب أُقتل؟!

– هو أنا ما ينفعش يبقى ليَّ رأي في شريك حياتي؟ ليه يغصبوا عليَّ واحد ما باحبوش؟! دا لو قطر الجواز فاتني أهون عليَّ من جوازي من علي..

وقع مصطفى في حيرة بالغة وازدحمت الأفكار والوساوس في رأسه وقال:

– يا بنت الناس الموضوع هيكون له أبعاد كبيرة ربما لا تدركيها في الوقت الحالي، وبعدين انتِ من غير ما تشعري بتورطيني معاكِ.

صدمتها عبارته الأخيرة فكانت على يقين بأنها فقط صاحبة الكرب:

– علشان استنجدت بحضرتك يبقى باورطك؟

قال مصطفى حازمًا بعدما ارتفع صوته واحتدت نبرته:

– استنجدي بيا وانتِ في بيت أبوكِ إنما اللي عملتيه هو الغلط بعينه.

زادت حسرتها وتجددت خيبة الأمل في نفسها وقالت:

– أنا هامشي علشان ما اكونش سبب لحضرتك في حرج أو مشكلة، بس أنا هاطلع من بيتك ومش هاروح..

شعرت داليا بمرارة الخذلان في حلقها بعدما تخلى عنها صاحب المروءة. نظرمصطفي لها بعطف وقد بدا عليها الانكسار وأخذ يراجع نفسه وقد تلاطمت هواجس شتى في عقله:

– هتروحي فين؟

رفضت داليا كل صور التسلط على غدها وأحلام قلبها، فربما لايتسنى لها أن تحيا مرة أخرى..

– مش عارفة، حاسة إني في كابوس ومافيش حد بيختار نصيبه؛ لكن الموت أهون عليَّ من عريس الغصب.

أبت العودة إلى البيت وقطعت على نفسها خط الرجعة ورحبت بالموت فلم يبقَ على الأرض عدل وقد حُرمت حق تقرير مصير قلبها وظلت تصرخ في أعماقها بالرحيل وقلبت الطاولة على كل أفكارها الرشيدة.

هبت واقفة وبدت ملامحها قاسية وتحجرت الدموع في عينيها فتحركت في مصطفى دوافع شتى وهب لنجدتها.

* * *

استشعر ماهر شيئًا من القلق تجاه رغبة هيثم في الهروب من البيت فأودعه في غرفته وأغلقها بالقفل وأعطى المفتاح لصفاء وطلب منها أن لا تفتح له الباب إلا لتقدم له الطعام أو ليخرج إلى بيت الخلاء.

صاح هيثم: يا ماما يا ماما.

سمعت صفاء صوته يناديها وهي تأتي بأكواب من «النيش» وقالت:

- عاوز إيه يا هيثم؟

هيثم: بسمة قالت لي إن فاتحة داليا الليلة..

صفاء: أيوة والضيوف قاعدين مع أبوك في أوضة الجلوس.

هيثم مترجيًا: طيب افتحي يا ماما علشان أحضر فاتحة أختي.

ودت لو فعلت وأطلقت له العنان؛ ولكن تذكرت أحكامًا صادرة ضده بالحرمان:

- مش هينفع يا هيثم، أبوك محرج عليَّ أفتح لك.

صمت هيثم وكأنه يفكر في حيلة للخروج من أسره فقال:

- طيب افتحي عاوز أروح الحمام.

بدت مرواغات هيثم مكشوفة لأمه:

- انت كنت في الحمام من ساعة، وسيبني علشان أنا ملخومة لوحدي في المطبخ.

بدا صوت هيثم حزينًا منكسرًا:

- يعني يا ماما مستكترة عليَّ أفرح شوية واحضر فاتحة أختي مع الرجالة؟

رق قلب صفاء لابنها وجلدت كلماته عاطفتها وشق عليها أن يبقى رهين محبسه في هذه الليله التي تقف فيها الفرحة على عتبة دارهم:

- هافتح لك يا حبيبي ويمكن أبوك لما يلاقيك واقف معاه في اليوم دا يسامحك وينسى اللي حصل منك.

عادت صفاء إلى المطبخ بعدما دقت على باب غرفة داليا مكلومة القلب والروح:

- يلا يا بنتي علشان أنا باجهز العصير والجاتوه وتدخلي بيهم للضيوف. دق جرس الباب فقام ماهر ليفتح الباب.

مصطفى: السلام عليكم.

ماهر: وعليكم السلام اتفضل يا أستاذ مصطفى.

مصطفى: لاشكرًا، عاوزك في كلمة لو سمحت.

ماهر ممتعضًا: طيب لو حاجة سريعة ماشي، لو الموضوع هيطول يبقى وقت تاني علشان عندي ضيوف.

مصطفى بتروٍّ: وأنا جاي لك بسبب الضيوف.

اضطربت أفكار ماهر وقال:

- خير يا أستاذ مصطفى قلقتني، فيه إيه؟

طرح مصطفى كلامه بدون مقدمات:

- أنا بلغني إنك هتقرا فاتحة داليا.

تعجب ماهر وقال مندهشًا:

- مين اللي بلغك؟ دا احنا لسَّا قاعدين وهنقراها..

مصطفى: انت ناسي إن احنا جيران؟

زفر ماهر بقوة وقال في حدة:

- والمطلوب إيه علشان سايب الضيوف لوحدهم؟

مصطفى بلين: انت خدت رأي داليا في العريس؟

ماهر بحدة: هو احنا عندنا بنات تقول رأيها ولا تحب وتكره؟!

سلبها حقها في اختيار رفيق دربها ومن تمشي تحت إبطه أحلام عمرها، بل استكثرعليها أن تكون لها رغبة ورأي وعاطفة مهما تعلمت وعلا شأنها.

احتدت نظرات ماهر له لتدخله السافر في شوؤن بيته ولولا رهطه لرجمه بوابل كلماته.

تلمح مصطفى بوادر غضبه فقال برفق:

- يعني ينفع تغصب على بنتك عريس هيَّ شايفاه مش مناسب ليها ولا كفء لمستوى تعليمها؟

وضع ماهر يده على كتف مصطفى وربت عليه وبدا وكأنه يصرفه:

- وفر كلمتين النحوي بتوعك عشان أنا كدا اتأخرت على الضيوف.

احتدت نبرة مصطفى وقال:

- يا ماهر انت طبعك حامي والموضوع اللي جاي لك فيه عاوز حكمة وهدوء.

ماهر بترقب: موضوع إيه؟

رمقه مصطفى بعمق وكأنه يتحين انفجاره: بنتك داليا جات لي البيت تستنجد بيَّ..

أشعل تنور ثورته وانتفخت أوداجه وأغلق باب بيته قليلًا حتى لا يسمع الضيوف بالخبر:

- تستنجد بيك؟ دا أنا هاقتلها واشرب من دمها..

مصطفى في حزم:

- بنتك دخلت بيتي برضاها ومش هتطلع منه غصب عنها..

امتطى ماهر صهوة غضبه ودفع مصطفى في صدره واندفع ناحية بيته المجاور فأمسك مصطفى بذراعه وقال:

- يا ماهر العرف بيني وبينك وزي الناس ما تحكم.

جاءت صفاء تصرخ ناحية زوجها وقالت:

- الحقني يا ماهر هيثم خرج من أوضته وهدومه مش في الدولاب.

ماهر: ومين فتح له؟!

صفاء منتحبة: قال لي عاوز ادخل الحمام فتحت له ودخلت المطبخ احضر حاجة للضيوف.

صرخت صفاء وظلت تضرب على صدرها وتقول:

- يا مصيبتي.. هيثم هرب زي ما كان بيقول...

تملك ماهر الفزع وداهمته مخاوف شتى وترنحت أفكاره وأثقلت الصدمة بدنه ووضع يده على قلبه حتى لا يفتته الهم:

- دا إيه المصايب اللي بتطبل على دماغي مرة واحدة دي؟

أخذه مصطفى من ذراعه وأعاده في اتجاه بيته:

- ادخل عرف الضيوف بموال هيثم وقول لهم هنقرا الفاتحة في وقت تاني. ويلا بينا ندورعلى هيثم قبل ما يبعد عن البلد.

خرج ماهر من بيته وتبعه الضيوف وتشتتوا في شوارع القرية والطرق المحيطة بها. وفزع معهم الكثير من رجال البلدة وخاضت أقدامهم في كل الطرق الشاردة عن القرية.

* * *

عاد أشرف من الجامعة بعدما أنهى اختباره الأخير، مفتقدًا النشوة التي كان يرجع بها في كل أيامه السابقة، قادته قدماه إلى المستشفى ليطمئن على منصور حتى دلف إلى غرفته وقال متظاهرًا بابتسامة مصطنعة:

- عامل إيه يا عم منصور؟

انتظمت أنفاس منصور وبدأ يستعيد شيئًا من عافيته:

- بخير الحمد لله اتحسنت شوية، طمنِّي عليك، عملت إيه في الامتحان.

قلَّب أشرف نظراته في الغرفة حتى لا تتلاقى عيناه بصاحبه وقال:

- كله تمام.

ككتاب مفتوح اعتاد قراءته تصفح وجهه وقال:

- انت ما بتعرفش تكدب يا أشرف، عرفني عملت إيه؟

لم يجد أشرف مفرًّا من المصارحة، حيث أقصر الطرق هو الخط المستقيم.

– بصراحة مادة «استراكشر» دي صعبة شوية، ولقيت نفسي مش مركز من السهر، والامتحان جاي صعب ووقت ممل، فقعدت ارسم في ورقة الإجابة لحد الوقت ما انتهى.

ما أخبره به أشرف كان أشد عليه من مرضه، فشعر بغصة جديدة تجتاحه وتدغدغ وجدانه وتتهاوى به مجددًا في قاع أوجاعه:

– أنا السبب، يا ريتك سِبتني ومشيت ولا ما جيتش تشوفني أصلًا.

اقترب منه اشرف وربت على كتفه وقال:

– عمري ما ندمت على خير عملته، واتعلمت من مواقف كتيرة صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ، وأنا عشمان في ربنا إنه ما يضيعش تعبي. أنا سمعت الدكتور حسام موافي بيتكلم في برنامج «باب الخلق» عن جبر الخواطر وثوابه، ولعل معجزة تحصل وربنا يكتب لي النجاح.

كان على يقين بأن الله سيدبر له أمره وستدركه معية الله حيث صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

كلمات منصورصهرها الأسى وظلت تنزف من شفتيه بوجع:

– أنا من ساعة ما فُقت الصبح وانا بادعي لك وكان نفسي تيجي وتطمن قلبي عليك.

تظاهر أشرف بعدم الاكتراث بالأمر حتى لا يُعكر صفوه، حيث الحالة المعنوية الطيبة لها أثر صالح لنيل الشفاء، وقال متظاهرًا بالثقة:

– أنا مش قلقان، بس عاوزك وانت في الشدة دي تدعي لي علشان ربنا يكرمني.

استحضر أشرف في خاطره مقولة سمعها من أحد الدعاة بأن الله عز وجل عند المنكسرة قلوبهم، فناشد منصور أن يذكره عند ربه بدعوة تكون فيها نجاته.

داهمه شعور بالإرهاق من ليلة أمس التي كانت مشحونة بالتوتر والصخب وقال:

– هاسيبك دلوقتي واعدي عليك تاني مع إني مش عاوز اسيبك لوحدك.

منصور ممتنًّا: اتفضل انت وكترخيرك وجميلك في رقبتي ليوم الدين، عمومًا فاتن هترجع النهاردا.

أشرف مستعلمًا: هيَّ تعرف إنك هنا؟

منصور بجزع: أنا كنت عاوز أكلمها وأمهد لها الكلام علشان ما تتخضش عليَّ.

أشرف بتودد: خد تليفوني كلمها بس مش هاوصيك خلي نبرة صوتك قوية أحسن تقلق عليك.

أخبرها منصور بأنه قد جاء إلى المستشفى المجاور لبيتهم لإجراء بعض التحاليل التي ربما تستغرق وقتًا، وبصحبته أشرف الذي ستجده في انتظارها على الباب الرئيسي.

* * *

بخطى منكسرة شق مصطفى طريقه إلى بيته بعد ساعات مضنية من البحث عن هيثم في أروقة القرية وما جاورها، والذهاب لبيوت أخواله وأصدقائه وسؤال الجميع عنه.

دق الباب وانتظر حتى فتحت له زوجته وبادرته بالسؤال:

- مش المفتاح معاك؟ بتخبط ليه؟

قضب مصطفى جبينه وزم شفتيه:

- انتِ ناسية إن فيه واحدة غريبة معانا في البيت؟ هيا فين داليا؟

تهاني: قاعدة أنا وياها في الصالون.

فطلب منها مصطفى أن تخبر داليا بقدومه، دخل الغرفة وحياها.

مسحت داليا وجهها بكفيها وكأنها تستجمع قواها لتتكلم:

- وعليكم السلام ورحمة الله، مافيش أخبار عن أخويا هيثم؟

مصطفى حزينة كانت عيناه وكذلك كلماته:

- كان بودي أطمنك لكن لفينا البلد والجيرة ولا حس ولا خبر.

زادت المرارة التي تشعر بها داليا وقالت:

- يعني يكون راح فين؟

عقد مصطفى ذراعيه على صدره وأثقل الهم رأسه فأخفضه.

- صاحب الكشك اللي على الكوبري بيقول إنه لمحه بيركب عربية دبابة.

استحال مرعي أمانيها أرض جُرُز وشعرت بسقف أحلامها يتهاوى وقد أتت الفاجعة على ما بقي منها:

- وبابا عامل إيه؟

مصطفى بشجن: أبوكِ الله يكون في عونه.

انتاب داليا شعور بالندم على صنيعها وقالت:

- وبالنسبالي يا أستاذ مصطفى موضوعي وصل لإيه؟

دارت أفكار كثيرة برأس مصطفى قبل أن تأتيها بإجابة:

- انتِ هتقعدي معانا لحد ما نلاقي هيثم وبعدين نتفرغ لموضوعك.

داليا واجمة: تفتكر بابا هيسيبني قاعدة هنا عادي؟

أخبرها مصطفى أن أباها ليس بوسعه أن يحارب في جبهتين في وقت واحد.

اعتصر الألم قلبها فقد صارت لوالدها كجبهة حرب وبصوت باكٍ حاولت أن تطمئن على الجبهة الثانية:

- قلبي واكلني على أخويا هيثم وخايفة يحصل له حاجة، حد فينا اختار الوقت الغلط علشان ينقذ نفسه.

كانت تهاني غير راضية عن وجود داليا بالبيت وقالت:

- أنا شايفة إن دا الوقت المناسب لرجوع داليا بيتهم، خاصة إن أبوها عنده مشكلة أكبر.

رفض مصطفى الفكرة فقد كان يرى الأمر من زواية مختلفة:

- بالعكس؛ أنا خايف المشكلة الأكبر اللي عنده تخليه يرتكب جريمة في حق داليا والموضوع يكون أكبرمن قلم على وشها ولا علقة بالعصاية.

بدأت داليا تدرك شيئًا من العواقب الوخيمة التي حذرها مصطفى منها من قبل:

- أنا مش عارفة الدنيا بتخبط معانا كدا ليه!

مصطفى راجيًا: قولي الحمد لله وربنا يلطف في اللي جاي.

ساد الصمت بينهم دقائق وكل منهم في رأسه حسابات مختلفة ومخاوف. حتى قطع سؤال مصطفى حالة الصمت:

- محمد فين يا تهاني؟

تهاني: نايم في أوضته.

وضع مصطفى يديه على ساقه المجهدة من السير والكر والفر:

- أنا هادخل انام معاه ودواليا هتنام معاكِ واقفلي الباب من جوَّا ألا محمد يفتكرك نايمة لوحدك ويدخل الأوضة.

لم تكن ساق مصطفى وحدها المتعبة؛ فكذلك كان قلبه خوفًا من عواقب يخشاها:

- اتفضلوا تصبحوا على خير وأنا هاتوضى واصلي ركعتين قيام الليل وبعدين أنام.

أراد مصطفى أن يتضرع إلى ربه لتمر العاصفة بسلام وتمضي الأمور بأمان.

أغلقت تهاني باب الغرفة ولم تغلق باب الوساوس التي اجتاحت رأسها غصبًا حتى سمعت طرقًا عنيف على الباب.

خرج مصطفى بالمنشفة يمسح بها وجهه وذراعيه وفتح الباب لمن يطرقه.

ماهر بحدة: بنتي فين يا أستاذ مصطفى؟

مصطفى بثبات: بنتك نايمة مع مراتي.

انتفخت أوداجه واشتعل وجهه غضبًا:

- أنا في مشكلة ومش شايف قدامي، ادخل هات داليا علشان نمشي من سكات لحد دلوقتي ما حدش عرف إنها طلعت من البيت والبنت في حكم المخطوبة وكلام الناس مر.

مصطفى بتودد مخاطبًا ما بقي فيه من الإنسانية:

- خايف كلام الناس يكسرك ومش خايف على بنتك اللي بتكسر قلبها وتسقيها المر؟

شوك مصائبه أدمى فؤاده وأخذ بصوابه فاحتد وأخذ يشيح بيده بعنف:

- أنا عارف مصلحتها أكتر من أي حد، ادخل صحيها بدل ما أدخل أجرها من شعرها.

كذب من قال إن الشر بالشر يُطفأ؛ فالنارلا تُطفأ بمثلها فالماء وحده بوسعه ذلك.

حدث مصطفى بهذا نفسه فانحدرت كلماته وانسابت منه برفق:

- أنا مقدر الحالة اللي انت فيها؛ لكن تدخل فين؟ بيوت الناس لها حرمة. انت بتخبط عليَّ وانا باتوضى علشان أصلي قيام الليل والبلد والجيرة تعرف مين هو مصطفى خيري.

ماهر معنفًا: ما ينفعش تنام في بيتك يا راجل يا محترم.

قد أثارت الجملة حفيظته فدفع غضبه ما استطاع:

- علشان أنا محترم مش هينفع أسيبها تخرج من بيتي بعد ما استنجدت بيَّ، وأنا على يقين إنها لو خرجت معاك دلوقتي هتقتلها وتزود مشاكلك بيها.

طالبه مصطفى بالتروي في أمر داليا وعليه أن يلتفت إلى أمر هيثم أولًا:

- بكرة نطلع ندور تاني على هيثم ولما نرجع على خير نتكلم في موضوع داليا.

وقف ماهر والدماء تغلي في عروقه وكلمات مصطفى تطن في رأسه فربما قتلها وزادت مصائبه وخسر كل شيء، فمشى إلى بيته بهواجس استباحت عقله ومخاوف عبأ بها صدره على الهم الأكبر الذي داهمه بهروب هيثم..

* * *

عاد جمال بعد يوم شاق في الجامعة إلى منزله يحمل أوراق الامتحانات كي يقوم بتصحيحها، دلف إلى الصالون فوجد مازن قد غلب النوم عينيه وهو يشاهد التلفاز، فحمله ووضعه على فراشه ثم

بدَّل ملابسه وتوضأ وصلى العشاء، ثم أحضر الطعام على المائدة بعد أن أخرجه من الثلاجة وقام بتسخينه وأيقظ مازن فأكلا معًا وأعاد الأطباق إلى المطبخ وربت على كتف مازن وقال:

- أنا عاوزك تقوم تصلي العشا وتدعي لماما ربنا يرحمها وتدعي لنفسك، وانا هاقعد أصحح شوية أوراق.

اختلى جمال بأوراقه وغاب مازن في سجدة طويلة وكأن قلبه قد سجد معه. قام جمال وأحضرقهوته وقد انتهى مازن من صلاته وجلس مكان أبيه يتصفح الأوراق، وضع جمال القهوة على المكتب وأتى بكرسي ليجلس مازن إلى جواره، انتهى جمال من تصحيح كثير من الأوراق وبقي شيء قليل فقرر أن يتركه للغد فقد داعب النوم جفونه واستشعر الإرهاق يسري في بدنه.

- يلا يا حبيبي ننام ونكمل بكرة.

فأشار مازن بيده لُيعلم أباه بعدم رغبته في النوم.

هزَّ جمال رأسه وتبسم تبسم المغضب:

- طبعًا يا عم مازن انت نايم وواخد راحتك، أمري لله هنكمل الأوراق اللي باقية وننام على طول.

تلقت يد جمال ورقة ليس فيها إلا الأسئلة مكتوبة وقد رسم صاحبها بعض الطيور، حدج مازن الرسوم بنظره ووضع إبهامه عليها وحرك شفتيه ومكث يتطلع في الورقة وقال:

- دجاجة بطة عصفو...

لم يتركه جمال كي يُكملها:

- انت بتتكلم يا حبيبي؟!! واحشني صوتك...

وامتزج صوته بالبكاء وقال:

- اتكلم تاني عاوز أسمعك.

مازن مبتسمًا والفرحة تغمر قلبه الصغير: انت حبيبي يا بابا..

قبله واحتضنه وضمه إلى صدره بلهفة وقال:

- الحمد لله إنك اتكلمت تاني، لعل دعوة البنت اليتيمة ربنا استجابها.

مازن منتشيًا قال:

- كدا ماما فرحت إني اتكلمت؟

شعر جمال بغبطة ليس بوسع أعتى السفن أن تحملها وتعبر بها البحر لتهنأ بها أوروبا:

- أكيد يا حبيبي.

كاد قلبه أن يطير إلى قبر ضحى ليزف لها البشرى، خر ساجدًا لله شكرًا على نعمته، ثم وثب وضم مازن إلى صدره واشتد به فرحه حتى بكى.

* * *

كانت تهاني متبرمة من وجود داليا في البيت، وحدثت مصطفى في ذلك وهو يجلس إلى جوارها بعد أن قامت داليا لتصلي العشاء:

- وبعدين يا مصطفى عدى كذا يوم وداليا قاعدة في البيت واللي بيحصل دا ما يصحش، انت سيرتك طيبة والناس عارفاك خليها ترجع بيتها، انت مش هتبقى أحن عليها من أبوها.

مصطفى: يعني أطردها بعد ما استنجدت بيَّ؟!

زفرت تهاني بقوة وقالت:

- مش عارفة والله سابت البلد كلها وجات لك انت ليه؟

مصطفى بهدوء: انتِ لسَّا قايلة سيرتي طيبة.

شعرت تهاني بسخط يفترش ضلوعها من صنيع جارتها التي أتت بوحلها إلى بيتهم. أخفت تبرمها ما استطاعت في الأيام الماضية حتى ضاقت نفسها فباحت به:

- كانت هربت زي ما قالت لك والدنيا اللي ساعت أخوها تساعيها.

ضجرت مروءته من كلام زوجته واحتد صوته وقست ملامحه:

- أخوها راجل، لو قعد عمره كله هربان عادي، إنما دي بنت وعرض، والشارع مش هيرحمها، وبعدين كفاية على أهلها اللي هما فيه.

أفصحت تهاني عن سبب آخر لرفضها وجود داليا في البيت وقد اقتربت من مصطفى وطوقت بذراعها عنقه:

- طيب لحد إمتى هتفضل قاعدة معانا في البيت ومش عارفين ناخد راحتنا ولا نقعد شوية مع بعض؟!

طافت فكرة في رأس مصطفى حاول أن يدفعها ويجد لها بديلًا وكأنه يسير في حقل ألغام، فكانت كل الأفكار قابلة للانفجار، فانتهى إلى فكرته مجددًا فربما كانت الخسائر أقل:

- اسمعي يا تهاني، فيه ظروف بتفرض نفسها علينا ومافيش حد بيهرب من نصيبه. فيه حل وحيد ومش لاقي غيره، نقطع بيه كلام الناس وفي نفس الوقت نبعد عنها العريس اللي مش عايزاه.

تهاني قد رفعت حاجبها واحتدت نظرتها لزوجها وقالت متوجسة:

- حل إيه إن شاء الله؟

قد دخلت بيته لاجئة فأراد أن يمنحها حق المواطنة.

أنا فكرت في حل مؤقت زي علاج أومسكن للمشكلة إني أكتب عليها.

ضربت تهاني يدها على صدرها بعدما نزعتها من حول عنقه وقالت:

- يا مصيبتي.. تتجوزها! دا أنا هادخل اطردها بالفم المليان، أصل تلميحي معاها ما جابش نتيجة..

عبس وجه مصطفى وقال بحدة لتبقى لفكرته القوامة ويمهد لها الطريق مذللًا عقبات الداخل ثم الخارج:

- تبقي بتخدميها خدمة العمر، الأول كانت هتعيش مع ضرة ودلوقتي هتعيش في البيت لوحدها.

بكت تهاني فلم يخطر ببالها أن تكون هي الضحية للخطب الذي ألم بهم. وتدفع وحدها فاتورة الحساب وتمشي على أشواك زرعتها داليا في أرضها ربما بغير عمد:

- انت هتطلقني عشانها يا مصطفى؟

مصطفى بحزم: عمري ما خطر على بالي إني أعيش من غيرك. دا انتِ سندي في الحياة؛ لكن الغلبانة دي الناس اتكلمت عليها وسيرتها انجرحت.

لم تكن مقومات داليا كأنثى محركًا لهذه الفكرة في رأس مصطفى؛ ولكن على سبيل الستر ليكف أهل القرية عن جلد عرضها وحتى يكون لها حصنًا كما أرادت.

واقع مرير يفرض نفسه على تهاني ولا بد من التعايش معه.

– وهتقعد معايا في شقتي؟

أسند مصطفى رأسه إلى الحائط وحمد الله في سره وتنهد برفق:

– لا طبعًا هتقعد في الشقة اللي فوق اللي بادي فيها دروس، واحنا الأيام دي في أجازة.

بدا على مصطفى الارتياح لتسليم زوجته لقراره، فهدأت أنفاسه وبدأت أفكاره تستعد لمواجهة العقبة الباقية خارج البيت.

* * *

أنهت سمر كافة الاختبارات وعادت إلى بيتها فوجدت همًّا عاصفًا يترقبها ليزن لها حصتها، ضاقت الدنيا في عينيها وتشتت حزنًا على غياب شقيقها، والفعل المخزي الذي ارتكبته داليا، خيَّمَ الحزن بظلاله على البيت ونفوس من فيه، تبددت بداخلها كل الأحلام ولم يعد بوسع قلبها أن يتألم أكثر.

وقالت بصوت حزين داهم الهم منبعه ومصبه:

– بابا ما اتصلش؟

صفاء منتحبة: أبوكِ بقاله يومين في دمنهورعلشان فيه سواق من البلد شاف هيثم في موقف دمنهور، فأبوكِ راح وعمل محضر هناك وعمل محضر هنا وبعت له صورة هيثم.

أيقنت سمر أن وسائل التواصل الحديثة ربما كانت مجدية في العثور على هيثم:

- وانا هانزل صورته على صفحة «دمنهور لايف» وعلى كذا جروب كبير؛ لكن الخوف إنه يكون ركب من هناك وراح القاهرة.

بقلب غائب مشتت ودموع قد تجلت صرخت صفاء:

- يروح مصر فين؟ دي مصر كبيرة وهنوصل له إزاي؟!

فقد كانت صفاء تنتظرعودته في كل لحظة ولم يطُف ببالها أن غيبته قد تطول، وبدموعها كانت تبتهل أن يردَّ الله فلذة كبدها:

- يا رب انا ما عملتش حاجة وحشة في حد، يا رب رجع لي ابني وما تفجعنيش فيه.

ربتت سمر على كتف أمها كي تكفكف دموعها وقالت:

- احضر لك لقمة تاكليها يا ماما؟

تنهدت صفاء بحزن: ومين له نفس للأكل؟ دا الناس بتبقى عندها مصيبة واحنا عندنا مصيبتين!

سمر: عملتم إيه يا ماما في موضوع داليا؟

قالت صفاء والحسره تقطرمن فمها مع حروف تخرج غصبًا:

- فضحتنا الخايبة، أهي قاعدة في بيت الأستاذ مصطفى لما نشوف موضوع أخوكِ الأول نبقى ندور على خيبتها.

أوجع قلوبهم سياط الألسنة، ودغدغت كيانهم نظرات الشامتين، وتناثرت الأقوال والقصص التي نُسجت بغزل المفلسين منهم عن مبرر فرار هيثم من بيته وفرار داليا من علي.

وكانت مجالس أهل القرية تقوم وتنفض على أنقاض بيتهم الذي تهاوت عزته، حتى فراشة البيت الصغيرة نزحت براءة وجهها تدريجيًّا وباتت دموعها لا تجف من فرط حبها لهيثم وشدة تعلقها به:

- كل ما أسأل حد هيثم هيرجع إمتى ما يردش عليَّ، ليه مش عاوزين تعرفوني؟

اقتربت منها سمر وقبلتها في وجهها وأخبرتها أن والدها سيتصل ويزف لهم البشرى اليوم أو غدًا:

- لكن أنا عاوزاكِ تاكلي علشان لما هيثم يرجع تقدري تجري عليه وتحضنيه.

أبت بسمة الطعام برفض مطلق لا يقبل التفاوض، فلم يخطر ببالها يومًا أن تباعد الأيام بينها وبين شقيقها توأم روحها ونصف عقلها وأنيس مرحها، فقلما تحركت بغير مشورته أو لعبت بغير رفقته.

سمر: طيب افرضي إن هيثم قعد يومين كمان برَّا البيت؟

تنهدت بسمة وأغمضت عينيها وقالت بصوت عليل تمددت في أوصاله كل معاني الوجع:

- أنا مش جعانة، ولما هيثم يرجع كمان يومين هاكل معاه.

دغدغ الحزن مشاعرها وأبت نفسها الطعام فلم تعتَد أن تحيا بدونه، فكانت تُغمض عينيها تستحضره وهو يركب معها الأرجوحة أو يُطعمها الحلوى لتأنس روحها به.

* * *

أمضى وقتًا طويلًا في موقف دمنهورالعمومي فعزم في البداية على الذهاب إلى القاهرة، لعل في زحامها يبدأ رحلة البحث عن الغد الذي يرجو بشراه لنفسه، ثم حط عصا ترحاله في الإسكندرية بعدما هداه تفكيره لذلك، وضع حقيبته على الأرض وجلس عليها ثم مشى ولا يدرِي أين يضع مع الأيام أقدامه، مشى حائرًا مضطرب الخطى يحمل أوجاعه في صدره، يجر ساقيه المتعبتين ونفسه الشاردة حتى انتهى سيره على أبواب أحد المساجد بمنطقة سيدي بشر، اتكأ على حقيبته ونام حتى أتى عامل المسجد ليفتح المسجد لصلاة الفجر، وأيقظه فمشى خطوات ولا يدري أين يذهب، سمع نداء الفجر فعاد إلى المسجد ليحتمي به من قسوة الشارع، صلى وخرج يمشي على أشواك يأسه بلا

روية وروحه المحطمة تخطو بلا هدف، فكانت كل الطرق أمامه واحدة إلا طريق العودة من رحم ظلمة الفجر، خرج النهار رويدًا وأشرقت الشمس فحداه أمل أن يجد له عملًا وسكنًا في الإسكندرية ولا يعود إلى جحيم بيته، جلس أمام أحد محلات البقالة الصغيرة حتى جاء صاحب المحل:

- إيه يا ابني قاعد هنا ليه؟

هيثم: أنا بادور على شغل.

فنظر له صاحب المحل بنفور: روح يابني الله يساهلك.

تناول هيثم حقيبته ومشى ليجدد سعيه في مكان بديل بعدما وجد الربيع الذي خرج من أجله أدغالًا، فبيته لم يكن به رحيمًا، فمن السفه أن ينتظر الرحمة خارجه. فقرر أن يمشي حتى يصل للبحرويُسلمه نفسه طواعية ليضع حدًا لمأساته، ركضت أفكاره وبقوة ساعديه كان يدفع أمواجًا على متنها عصا أبيه، تندفع بقوه ناحيته فأخفض رأسه واندفع بجسده إلى أسفل حتى تُخطئه هذه المرة، زفر بقوة ثم رفع رأسه وهزها بعنف لينفض عنها الأفكار السوداء.

وقف دقيقة وظلت روحه ترتجف حتى ناداه صاحب المحل:

- انت منين؟

هيثم: أنا من دمنهور.

صاحب المحل تفحص ملامحه الطيبة وقال:

- استنى شوية لحد المعلم ناجي ما يفتح ورشته علشان كان بيدور على حد يشتغل معاه.

لبث هيثم ما يقرب من ساعة حتى أتى صاحب الورشة.

صاحب المحل: صباح العسل يا معلم ناجي الجدع دا بيسأل على شغل.

فتح ناجي باب الورشة فأسرع هيثم وعاونه في ذلك.

ناجي يرمقه بعينه: اسمك إيه؟

هيثم: هيثم ماهر.

ناجي: منين يا هيثم؟

هيثم: من دمنهور يا معلم.

ناجي: اشتغلت عند حد قبل كدا؟

خفق قلب هيثم فربما لايملك من مسوغات التعيين إلا شهادة بعدوان عصا أبيه على ظهره حاملة كل أختام القهر:

- لا يا معلم.

ناجي: معاك بطاقة؟

هيثم: لسَّا ما عملتش، أنا عندي خمستاشر سنة.

ودَّ هيثم لو أخبره أن الظلم الذي تجرعه في سنوات صباه بلغ به سن الرشد ليواجه الأهوال.

شعر ناجي بالارتياح له:

- شكلك ابن ناس، اقعد معايا كام يوم لما اشوفك يمكن تنفع. فطرت ولا لسَّا؟

قضى ليلته خاوي البطن، فالغم والرغبة في الطعام قلما اجتمعا، تلكأ في الإجابة هذه المرة ثم قال: آه آه فطرت، وقد كذبته عيناه.

ناجي: انت هتكدب من أولها؟ شكلك لا فطرت ولا نمت. فيه مطعم أول الشارع روح هات لنا نفطر وبعدين تفرج.

ناوله عشرة جنيهات فأخذها وهو يتطلع إلى الورشة من الداخل بلفتة سريعة وقد هدأت نفسه المضطربة وشعر بالراحة تجاه ناجي فربما في هذه الورشة الصغيرة تبدأ حياته الجديدة التي يرجوها، ويلملم شعث روحه المهترئة ويحيا كريم النفس والبدن.

* * *

جلس ماهر في بيته بعدما أعيته الحيل في البحث عن ابنه الذي فر من قسوته وسوء معاملته، فتزاحمت الهموم بصدره واكتملت مناحته

بهروب ابنته من الزوج الذي لم ترضَ به، فأناخت المصائب مطاياها بعتبة داره. دق مصطفى الباب فتحت له بسمة وقادته إلى غرفة الضيوف حيث يجلس والدها منكَّس الرأس والروح.

وخزٌ حادٌّ ألمَّ بفؤاد مصطفى عطفًا على انكساره والهم اليافع بعينيه.

ربت على كتفه: ما وصلتش لحاجة؟

اصطفت كلمات ماهر وهي تخرج من فمه ذليلة كأسرى الحرب:

- خليت عربيات تذيع بميكرفون ونزلت صورة على النت وطبعت ورق فيه صورته وبياناته ورقم تليفوني علشان لو حد استدل عليه.

مصطفى مستفسرًا: طيب هو كان معاه فلوس؟

ماهر: خد 200 جنيه من فلوس كانت شايلاها والدته.

حاول مصطفى أن يطمئنه فقال:

- لما تخلص الفلوس اللي معاه هيرجع، يعني هيروح فين؟

وجد مصطفى السبيل مفتوحًا ليعظه حتى لا تتكرر أخطاؤه مجددًا مع أبنائه:

- بس لما يرجع على خير غيَّر من طريقتك معاه وعامله كويس، عمر القسوة ما عملت رجالة؛ بالعكس دي كانت هتخليه لما يكبر ابن

عاق ويبقى قاسي عليك، اللي زرعته هتحصده، خد من الماضي عبرة علشان الخطأ لو اتكرر يبقى خطيئة.

كانت كلمات مصطفى محاولة منه لترويض نفس ماهر العنيفة التي فضت أبناءه من حوله ورسمت خريطة أوجاعه.

ماهر نادمًا: بس يرجع على خير يا أستاذ مصطفى وكل حاجة تتصلح، دا أنا ضهري اتكسر من غيره.

وقت لا ينفع الندم بدأ يحقن نفسه بدفقات متتالية من تأنيب الضمير؛ ولكن ما جدوى ذلك وقد خرج الحجر من يد راميه؟

مصطفى مواسيًا: سيب همولك على ربنا وخلي عندك أمل في الله.

لانت عريكة ماهر فوجد مصطفى الفرصة سانحة للحديث الذي من أجله جاء:

- بالنسبة لموضوع داليا وإن كانت الظروف غير مناسبة أنا جاي أخطبها منك.

ماهر بحدة: تخطب إيه يا أستاذ مصطفى وانت راجل متجوز؟

ذكَّره مصطفى بقطيعة عائلته له وقد انفضوا من حوله وتركوه وحده يبحث عن ابنه:

- أنا مشفق عليك من الوضع اللي بقيت فيه، وجوازي من بنتك علشان أقطع كلام الناس.

زفر ماهر بقوة وقال في غضب:

- فضحتنا اللي ربنا ياخدها وحطت راسنا في الطين.

مصطفى مستدركًا لعلاج المعضلة التي نسجت داليا خيوطها حول الجميع:

- أنا باصحح وضع غلط هيَّ عملته، وانا من ليلة المشكلة قُلت لك يا ماهر العرف بيني وبينك وانا مش عايز بنتك لا رغبة مني ولا طمع والله ستر ليها مش أكتر.

لم يعقب ماهر على كلام مصطفى وبدا عليه الاستسلام لهذا الوضع الذي ربما يجبره العرف عليه لاحقًا.

ألقى مصطفى بآخر ما في جعبته قائلًا:

- بكرة إن شاء الله هاجيب المأذون واكتب عليها، وبالنسبة لجهازها أنا هاتكفل بيه واجيب اللي تحتاجه وشقتي في الدور التاني جاهزة. أنا عاوز الحمل يخف عليك علشان تقدر تتفرغ لموضوع هيثم.

فقد كان مصطفى مشفقًا على حاله وأراد أن يُخلي قدمه من إحدى الجبهتين ليتفرغ لمعركة تبدوا غائبة الملامح.

* * *

عاد منصور إلى بيته وبدأ يتماثل للشفاء رويدًا وأتى أشرف لزيارته حاملًا معه بعض الفاكهة وأكياس أخرى فيها ألوان من الطعام، فتوجه منصور له بالشكر:

- عامل إيه دلوقتي؟

- الحمد لله، بقيت أحسن من الأول، ويومين كدا وهانزل الشغل. طمني عليك، عملت إيه في النتيجة؟

تهلل وجه أشرف بالابتسامة وأشاح بيده في زهو وقال:

- مفاجأة مدوية.. معجزة.. نجحت.

تهلل وجه منصور هو الآخر وقال:

- بتتكلم بجد؟ والمادة اللي ما حلتش فيها لما كنت معايا في المستشفى؟

قدمت فاتن الشاي لأشرف ووضعت كوب والدها في يده وجلست بجواره.

استرسل أشرف حديثه وقال:

- حاجة ولا الأفلام يا عم منصور، أنا رُحت أشوف النتيجة وعلى يقين إني ساقط في مادة «الاستركشر» لقيت نفسي ناجح وجايب إمتياز!

روت السعادة قلب أشرف لحصوله على الدرجة النهائية؛ ولكن ساوره القلق وشعر بوخز ضميره فربما حدث خطأ في رصد الدرجات وحصل على مجهود غيره، فذهب إلى مكتب جمال في الكلية وأخبره بحقيقة الأمر.

– الدكتور جمال قال لي كلمات الشكر والثناء اللي في اللغة العربية تعجز إنها توفيك حقك. فسألته وأنا في قمة الاندهاش حق إيه؟ فحكالي إن ابنه ما كانش بيتكلم وكان واقف جنبه وهو بيصحح ورقتي فنطق أسماء الطيور اللي أنا راسمها.

ابتهج منصور فكم دعا الله في سجوده أن يُكافئ أشرف ويجبر خاطره جزاء إحسانه، وأن لا يضره معروفه الذي أسداه لتبقى كفوف الخير ممدودة بين الناس.

– ياما انت كريم يا رب، يعلم ربنا أنا فرحت بنجاحك قد إيه وعلشان انت أصيل وشهم ربنا وقف معاك ونجاك.

طوقت السعادة عنقه بإكليل أحلامه وغزلت البهجة كلماته وطلت الفرحة من عينيه:

– مش أنا قُلت لك يا عم منصور صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأ. دا مش بس كدا، خد الأهم؛ الدكتور جمال عرض عليَّ أشتغل في مكتب الاستشارات الهندسية الخاص بيه.

أطربت البشرى فؤاد منصور وأفعمت روحه بالسعادة وتدفقت مسراته في قسمات وجهه، فمشاعره تجاه أشرف مُزجت بنكهة الأبوه مع أريج الصداقة وشذى حسن الجوار:

- يعني نجاح ووظيفة مع بعض، انت تستاهل كل خير يا هندسة.

وكأن السماء كانت تحتفظ بمعروفه الذي صنع والجميل الذي وفى، ولم يكن أول الغيث قطرة؛ بل قطرتين.

انتشت فاتن بسحب الخير التي أمطرت على أرض عطائه:

- الخير بيقعد لصاحبه، مبروك يا أشرف.

أشرف بوجه باشٍّ: ربنا يبارك فيكِ يا فاتن.

فاتن بغبطة: عقبالي يا رب لما الاقي شغل.

أشرف مستفهمًا: انتِ خريجة آداب فلسفة، ليه ما قدمتيش في أي مسابقة؟

فاتن بسخط: قدمت كتير ومافيش فايدة.

من فرط نشوته وعدها: لو لقيت حاجة مناسبة هابلغك.

أرادت أن تفر من الفراغ القاتل وتنفض عن نفسها رتابة الوحدة، وتستدرك ما بقي من عمرها وتسحق بداخلها شعورها الدائم بالكآبة.

منصور متعجبًا: مش عارف والله شغل إيه اللي طالعة فيه.

فاتن بضجر أخفته ما استطاعت: يا بابا مش موضوع فلوس؛ لكن الفراغ ممل ونفسي ألاقي حاجة اعملها واطلع من جو البيت والجدران الأربعة.

كانت تسعى لرحب حياة جديدة تجد فيها السعادة والمرح، وأن تصنع لنفسها دائرة صداقة جديدة تأنس بها وتثري ثقافتها.

منصور مندهشًا: سبحان الله، ما دام انتِ عاوزة تشتغلي ليه رفضتِ لما الدكتورة هدير بنت خالتك عرضت عليكِ تشتغلي معاها في الصيدلية؟

كشفت فاتن عن سر عزوفها عن هذا الأمر فلم تُرِد تحقيق المبدأ بقدر ما كانت ترجو تبجيل رغبتها المحافظة:

- أنا عاوزة شغلانة مافيهاش احتكاك مباشر بناس كتير، أنا بطبيعتي باخجل.

كانت متحفظة في كثير من جوانب شخصيتها، وقد تفهم أشرف ما تريده وطبيعة العمل التي تنسجم مع ميولها.

- ادعي ربنا يثبت أقدامي في الشغل الجديد وانا أحاول أشوف لك شغلانة تناسبك.

وعدها أشرف بحماس بالغ وتمنى في قرارة نفسه أن يمد لها كف المعروف ويخلع طوق إحسان والدها إليه حين صادفه في الترام في المرة الأولى، فالعطاء بالعطاء والبادئ أولى.

* * *

أيام قليلة مرت على هيثم في الورشة لم تكن عيناه تغفلان عن شيء مما يصنعه ناجي. وفي صباح هذا اليوم أتم إصلاح دراجة بنفسه وناجي يجلس على كرسيه منبهرًا، ومن فرط إعجابه قال:

– الله ينور يا اسطى هيثم، انت شربت المهنة بسرعة.

انتهى ناجي من مكالمة هاتفية مع زوجته اطمأن فيها على حال أولاده.

أتى هيثم بكوبين من الشاي وأحضر إطارًا وجلس عليه بالقرب من ناجي الذي ارتشف من الشاي وهز رأسه:

– انت بقيت معلم كمان في عمايل الشاي؛ لكن تعرف ياد يا هيثم، فيه حاجة مزعلاني منك.

كان هيثم شارد الذهن عيناه تُنبئان عن حزن طافح، وكأنه قد تقدم طواعية ليحمل هموم الدنيا عن أهلها:

– ما تقولي إيه حكايتك وعرفني سر الهم اللي على وشك.

تنهد هيثم بحزن وقال:

– مافيش حكاية ولا حاجة يا معلم، أنا ظروفي على قدي وجيت أشتغل.

ناجي بشغف: طيب كلمني على أبوك وعن ظروفك.

دمعت عيناه وتذكرعصا أبيه وقسوته وفرط طغيانه وقال:

– أبويا.. أبويا تعيش انت.

جحد لسانه وربما نفسه فقد أنبتت فيها العصا ثمار البغض المريرة التي ملأت أعماقه بأنين اليتم.

ناجي مواسيًا: طيب تعيش وتفتكر، ربنا يرحمه، مش اخواتك وامك عايشين؟

وكأنما حركت كلماته سهام الحنين واللهفة والاشتياق التي غُرست في قلبه من يوم هروبه فتدفقت دموعه:

– هما دول اللي بيعز عليَّ فراقهم.

ناجي ربت على كتفه ليكفكف دموعه وقال:

– طيب ابقى انزل شوفهم ودمنهور مش بعيدة.

أومأ هيثم برأسه مجيبًا وبداخله ألف لا؛ فقد يكون الهروب من الألم أجدى من معالجته، فقرر أن لا يعود لعصا أبيه بعدما تعافت الروح وانتفض بدنه ونثر عنه تراب القهر الذي تمرغ فيه زمنًا.

ناجي: طيب كمل الشاي بتاعك علشان عاوز أكلمك في حاجة تانية.

رفع هيثم عينه عن الأرض ونظر لناجي: خير يا معلم حاجة إيه؟

ترأف ناجي بحاله: عاوزك تبطل سجاير، هيَّ حاجة ماليش فيها واخد بالي؛ لكن من خوفي عليك عاوزك تبطلها عشان صحتك أولًا وعلشان ما تسحبش معاك لحاجة أكبر من كدا، وعشان حاجة كمان هاقول لك عليها دلوقتي.

استحضر هيثم نصيحة أستاذه مصطفى وخجله بين يديه وقد خان العهد، فخاطب في نفسه عزمها لتحقيق طلب مرشده الجديد:

- حاضر يا معلم.

ناجي: حاضر بتريحني ولا حاضر بجد؟

أومأ هيثم برأسه ومسح وجهه بكفيه.

ناجي: طيب النومة هنا في الورشة مريحاك؟

هيثم: إحنا أحسن من غيرنا يا اسطى، دا فيه ناس بتنام في الطل.

فر هيثم من رفاهية بيته وفراشه الناعم وقيوده التي من ذهب، وافترش الأرض منقبًا فيها عن الفردوس الذي خرج من أجله.

ناجي: طيب انت عدى عليك أسبوعين معايا، تخلي قبضك على الشهر ولا كل جمعة؟

عبأ هيثم عيناه بنظرة وجلة على المستقبل:

– أنا هاخد فلوس بسيطة على قد مصروفي وخلي الباقي معاك.

ناجي متعجبًا: ومش هتعوز فلوس تبعتها لأهلك؟

هيثم مرتبكًا: إحنا عندنا حتة أرض بنصرف منها وأنا نفسي أحوش وأنجح في حياتي ويبقى معايا فلوس كتير.

ابتسم ناجي من أحلام الصبي الكبيرة وطموحه الجامح، وقال في نفسه «ولمَ لا؟ فقد تبدأ من هنا رحلة ثرائه، فأول الغيث قطرة ثم يأتي الوابل».

– يوم الجمعة اعمل حسابك هاجي أفتح لك الصبح وتيجي معايا البيت تقضي اليوم معانا، أنا عندي ولاد في سنك.

تبسم هيثم فرحًا بالمهد الذي يرجوه لتتربى فيه أيامه عوضًا عن أوهن البيوت الذي هجره، ثم تلاشت ابتسامته رويدًا، خشي أن يُطفئ مشكاة بيتهم لكونه غريبًا حلَّ بأرضهم.

أشفق ناجي على حاله وأراد أن يمسح عن واجهته غبار أحزانه:

– أنا عامل عليك، عاوزك تغير جو وتقعد مع أولادي وتفك عن نفسك شوية. بس ما ينفعش يا هيثم ولادي يشوفوك بتدخن.

وكان هذا هو المبرر الثاني لطلبه من هيثم ترك التدخين.

تنهد هيثم وقال والأسى يملأ ضلوعه:

- يا ريت أبويا كان حنين عليَّ زيك.

افتقد هيثم في أبيه العاطفة، فنبذ وجوده وتمنى لو جادت عليه الدنيا بغيره.

ناجي: ماعلش بقى ما تجوزش عليه غير الرحمة، واعتبرني مكانه.

في كنف جراح قلبه كان يبيت كل ليلة، حتى مد إليه ناجي كف إحسانه فقرر أن لا ينظر خلفه وأن ينسي ماضيه ليهنأ بحاضره.

* * *

أغلقت سمر باب غرفتها وأطفأت نورها وأضاءت صاعق البعوض واستلقت على فراشها، طال حديثها مع أشرف على الهاتف وقد أخبرها بنجاحه ووظيفته الجديدة فباركت له:

- ربنا يديك على قد نيتك.

ثم صمتت قليلًا وقالت:

- بالنسبة لداليا خلاص الموضوع بقى عادي، الأستاذ مصطفى جابها الأسبوع اللي فات سهروا معانا واحتمال ييجوا الليلة تاني، مش فاضل غير مشكلة هيثم.

كان غيابه إيذانًا بتنكيس رايات الحياة عن بيتهم الذي استحال إلى قبر موحش، وكأن لصًّا مر بدراهم وهم نيام فسرق زاد أرواحهم.

- هاقفل معاك دلوقتي علشان فيه حد بيخبط على الباب، النتيجة بتاعتي هتظهر بكرة، روح شوفها وطمني، مع السلامة.

دلفت داليا إلى الغرفة فقامت سمر واحتضنتها وقالت:

- عاملة إيه يا حبيبتي؟

داليا: بخير والحمد لله.

سمر مستعلمة بلهفة: طمنيني عليكِ، المرة اللي فاتت ما عرفتش اقعد وياكِ لوحدنا، الأستاذ مصطفى عامل معاكِ إيه ومراته وابنه بيعاملوكِ ازاي؟

رسمت عيناها لوحة جميلة عن الرضا: بيعاملوني كويس ومصطفى حنين ما بيستحملش يشوفني زعلانة، بيواسيني ويخفف عني حاجات كتيرة.

أرادت سمر أن تطمئن على شقيقتها التي تزوجت في أحداث مكفهرة الملامح:

- عايشين كلكم مع بعض في شقة واحدة؟

رسمت داليا خطوطًا عريضة لبيتهم من الداخل:

- مصطفى جهز لي الشقة اللي فوق؛ لكن المعيشة والأكل في الشقة اللي تحت، وبالليل باطلع أنام في شقتي.

سمر بدافع الفضول: بتنامي لوحدك؟

داليا: مصطفى بيبات معايا يومين في الأسبوع.

رفضت تهاني أن يتناوب مصطفى المبيت عندهما فلم يكن لها شرط إلا هذا، حيث تخطت الأربعين من عمرها فلم تشأ أن تدخل معركة سحبت منها السنين كثيرًا من أسلحتها، بينما بنت العشرين ما زالت ترتع في ربيع أنوثتها.

سمر: مبسوطة معاه؟

ارتسمت على وجه داليا ابتسامة خفيفة صافية وقالت:

– مصطفى راجل وسند وحنيته مالهاش حد، وما بيتأخرش عني في حاجة.

في اليوم التالي لعقد القران أخذها مصطفى واشترى لها مصاغًا وما راق لها من الثياب وما يحتاجه البيت من أجهزة ومتاع.

في غرفه الضيوف المجاورة لغرفة سمر كان هناك حديث من نوع آخر.

مصطفى مواسيًا: انت لحد دلوقتي مش مقصر في البحث عنه، ولعل دعوة منك وانت ساجد يكون فيها الفرج وأبواب السما مفتوحة.

ماهر متضرعًا: أنا ندرت ندر كبير بس يرجع على خير.

اكترث مصطفى بأمر صهره وذويه ليطمئن على شجرة أرحامه مورقه ما زالت أم رياح الفتن والخلافات ذهبت بغصونها:

- فيه حد من قرايبك لسَّا زعلان منك؟

هز ماهر رأسه: كلهم بيكلموني دلوقتي مافيش غير علي واخواته.

مصطفى راجيًا: مع الوقت النفوس هتصفى.

كان ماهر يقرأ رسالة وعيد في عين علي كلما صادفه في الطريق، لذا كان يعلم في قرارة نفسه أن الأجواء تلبدت بالغيوم وزفرات الغضب رعدت وبرقت وربما في الغد تُمطر شرًّا محتملًا:

- ربنا يهدي قلوبهم أنا ما ظلمتهمش وعمري ما ظلمت حد، يمكن غصب عني طبعي حامي شوية، وآديني اتعلمت الدرس.

صمت ماهر قليلًا وتنهد وذرفت عيناه لوعته على ابنه خوفًا عليه من مصير مجهول ينتظره في الشارع الذي فر إليه، فربما يقع في يد من يستغله فيذهب به التيه بعيدًا.

أشفق مصطفى على جزعه وربت على كتفه مواسيًا نشيجه:

- المؤمن مصاب، سيب حمولك على الله، وربنا هيحلها من عنده.

روَّضت الفاجعة نفسه الفظة وهدهدت من حدته وكسرت فيه طغيانه، لم تسجل الدموع حضورًا في دفترعينيه من قبل، فبكى وكأنه يشتهي البكاء.

* * *

جمال في مكتبه يطالع بعض الأوراق ثم قام ووضعها في أحد الأدراج الخاصة. ارتشف قهوته إلا قليلًا ثم جلس يتصفح منشورات أصدقائه على صفحات «الفيسبوك».

دق سعيد عليه الباب:

- صباح الخير يا دكتور، فيه شاب اسمه أشرف صالح عاوز حضرتك.

جمال مبتهجًا: خليه يتفضل.

مد أشرف يده مصافحًا: إزي حضرتك يا دكتور؟

جمال باسمًا: بخير، اتفضل اقعد. ثم نظر تجاه سعيد وقال:

- يا عم سعيد أشرف من النهاردا معانا في المكتب، عرفه على زمايله وخليه ياخد على المكان، وواحدة واحدة عليه لحد ما ياخد على الشغل.

سعيد: اتفضل يا هندسة معايا.

صافحه أشرف بكلتا يديه ممتنًا: بعد إذن حضرتك يا دكتور.

خرج سعيد وجلس على مكتبه وتبعه أشرف.

سعيد: معانا اتنين مهندسين، شادي ومحمود، ما يتخيروش عنك.

روح جميلة جمعت بين أفراد المكتب في عملهم، تفانٍ وإخلاص وجهد مبذول، وحبات عرق روت شجرتهم فأثمرت مجدًا وصيتًا ذائعًا:

– انت أكيد وراك دعوة طيبة علشان تبدأ حياتك في أشهر مكاتب إسكندرية.

أن تبدأ رحلتك من منتصف الطريق وغيرك تائه متحير بين الطرق، يبحث عن أولى خطواته؛ سلاح ذو حدين، وبقيت احتمالات كثيرة مطروحة في رأس أشرف، فسكب السكينة في حناياه وقال مبتهلًا:

– ربنا يوفقني وأكون قد المسؤولية يا أستاذ سعيد.

سعيد: أنا كدا هازعل منك، قول لي يا عم سعيد. عاوزك تخلي بالك وتفهم كل حاجة في الشغل وتدور بسرعة علشان تثبت أقدامك.

لم تتهيأ نفسه لتوقع الفشل وما كان يرجوه فرصه لإثبات الذات، والعاقل من يستغل أنصاف الفرص ليذهب بقارب أحلامه بعيدًا،

وقد كان يحلم بما دعت به سمر أن يكون أشهر مهندس مدني في مصر. أفعم صدره بهذا الأمل وقرر السعي لتحقيقه.

أشرف راجيًا: وانت برضه نفسك معايا يا عم سعيد.

سعيد بوجه متهلل: عليك بخير وعقبالك، أنا رايح عمرة رمضان الشهر اللي جاي وإن شاء الله هاقعد هناك لحد العيد الكبير والحج.

أشرف مهتمًّا: طيب ومين هيقوم بشغلك؟

سعيد باستكانة بدت على ملامحه:

– أنا كلمت دكتور جمال وقال لي هاشوف حد في الفترة دي.

أشرف متوسلًا: ادعي لي هناك يا عم سعيد اوعى تنسى.

سعيد: حاضر وبعدين أنا لسَّا قدامي أسبوعين ابقى فكرني تاني.

أراد أن يستحضر لنفسه البركة بدعاء هذا الرجل الكبير في أطهر بقاع الأرض، وألح عليه في ذلك فكم من أبواب مغلقة بالدعاء فُتحت.

* * *

أخفضت داليا صوت التلفاز لترد على مكالمة سمر. دار الحديث بينهما طويلًا في أمور شتى وتفاصيل صغيرة، حتى دلف مصطفى باب الشقة فاعتدلت في جلستها وأنهت المكالمة لتزف له البشرى.

مصطفى: بتكلمي سمر كالعادة؟

داليا: بطمن منها على أحوال جماعتنا.

جلس مصطفى إلى جوارها ووضع يدها على كتفها وقال:

- مبسوطة يا داليا؟

زادت بسمتها نضرة وجهها وكأن الربيع يحيا في بساتين عينيها:

- أكيد مبسوطة وكفاية حنيتك عليَّ.

مصطفى بشغف وتلطف: يعني مش ندمانة

داليا بوجد تجلى في عينيها: لو الزمن رجع بيَّ مش هاختار غيرك، ربنا يخليك ليَّ ويديمك نعمة في حياتي.

غزل خيوط فجرها بيديه، تعلمت الوجد في حضرته وصارت مشاعرها رهن إشارته، تُحب ما يُحب وتكره ما يكره، اختزلت أيام بهجتها في قربه فسلمته قلبها طواعية بعد أن انساب غرامه في حناياها، فقد عاشت معه الحب ووجدت فيه السند.

سكب مصطفى في عينيها نظرة حانية: حد مزعلك؟

داليا: لأ دي الست أم محمد وابنها في غاية الذوق معايا.

مسح مصطفى على شعرها الرطيب: أنا عارف إنك ممكن تكوني زهقانة من القعدة لوحدك، لو تحبي بكرة نخرج ونتفسح شوية.

داليا برقة: مش عاوزة أتحرك كتير اليومين دول.

مصطفى: خير

داليا بوجه باشٍّ: أنا حامل.

مال مصطفى ووضع قبله على بطنها وتهلل وجهه:

– مبروك يا حبيبتي وربنا يتملك على خير.

داليا بمودة: انت بقى مش ندمان؟ هترجع أب وعيل صغير يعيط ويصحيك من النوم.

كان مصطفى قد تخطى الأربعين بقليل، أبت زوجته تهاني الإنجاب بعدما تعرضت لمخاطر في حملها بابنها الوحيد، فطافت بخياله ذكريات جميلة:

– دي كانت أيام حلوة وإن شاء الله يبقى أمل جديد نعيش عليه، واقول لك على حاجة هاسميه أمل.

داليا مستوضحة: يعني لو بنت نسميها أمل طيب لو ولد؟

مصطفى بحسم: برضه هنسميه أمل.

داليا متعجبة: مصطفى أمل اسم بنت.

مصطفى موضحًا: واسم ولد كمان، انتِ ما تسمعيش عن الشاعر أمل دنقل؟

داليا: طبعًا اسمع.

مصطفى منتشيًا: إن شاء الله يبقى أمل ينور حياتك.

داليا مبتهجة: وحياتك انت كمان.

قد يكون الابن سندًا لوالديه لو أحسنا رعاية غرسه وربياه في كنف الإيمان، حتى إذا استغلظ واستوى على سوقه أحسن إليهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا.

سكنت هذه الحقيقة في روعها فكانت مع كل فجر جديد تضع يدها على حملها وتقرأ الأذكار ووردها اليومي من القرآن.

* * *

عواد. قاتل يعيش بلا قلب، اسمه كفيل بقذف الرعب في قلوب الجميع، حتى إن المرأة من أهل القرية إذا أرادت أن تُرهب ولدها لينام تذكر له اسم عواد لا يثبت في مكان ولا يتحرك إلا ليلًا، ذهب إليه علي ليستعين به على أمر ما.

علي: بقالي يومين بادورعليك.

عواد: كنت باخلص حكاية في إدكو.

علي: وخلصت على خير؟

عواد مندهشًا: المهم إنها خلصت، وانت عندك إيه علشان تدورعليَّ يومين؟!

علي مغريًا له بالمال: عاوزك في مصلحة، بضغطة واحدة على الزناد هاديك ألفين جنيه.

عواد: الموضوع مش ضغطة على الزناد يا ابو الفوارس؛ العبرة بالقلب الميت اللي ينفذ، وبعدين مين اللي انت مستعجل على موته؟

زفر علي بقوه وتطاير الشر من عينيه وقال:

- ماهر ابن عمي.

أعمى الغضب قلبه وذبلت شجرة الرحمة في نفسه، فأراد أن يهدم بناء الله في الأرض ويقتل إنسانًا دون جريرة.

عواد متعجبًا: مش كنت هتناسبه على حد علمي؟

تبسم علي ساخرًا وقال: كويس إنه ما حصلش نصيب.

عواد: مش بنته اتجوزت مصطفى خيري المدرس؟

بدا مبهوتًا من إلمام عواد بتفاصيل كثيرة:

- ما تستغربش أنا ليَّ عيون في كل حتة. بس أنا كنت متوقع إنك عاوزني أقتل مصطفى.

علي متحيرًا: أقتل مصطفى ليه؟

عواد: علشان اتجوز السنيورة اللي كنت هتخطبها.

زم علي شفتيه وهز رأسه موحيًا بـ: لا. مصطفى مالوش ذنب.

فرك عواد يديه ببعضها وكأنه يبدأ فترة الإحماء لجريمة يندى لها جبين الإنسانية:

– عمومًا مش هتفرق معايا، هيَّ طلقة في صدر مصطفى ولا ماهر مافيش حد هيعز عليَّ.

صار القتل عند البعض هواية ومستدر لذة، فلم ترتعد ضمائرهم ولم ترتجف قلوبهم ولم يُعكرصفوهم ما أثمته أيديهم، وكأنهم قطيع من الوحوش اقتحموا حياتنا بوجوه مستعارة، ظنًّا منهم أنها مجرد حفلة تنكرية.

صمت علي قليلًا وأغمض عينه وتذكر كلام الناس في القرية عن رفض داليا له ونفورها منه، وقال بنبرة تشوبها الحدة:

– أنا عاوز ماهر يبقى عبرة لكل واحد عنده بنت ومش عارف يربيها، وفي الآخر تحط راسه في الوحل وتخلي سيرته على كل لسان.

عواد بهدوء: خلاص اتفقنا سيبني يومين لما الاقي وقت مناسب.

علي بغضب: لا يومين ولا حاجة، بكرة هتخلص واسمعني كويس وشوف أنا مرتب لك ازاي.

كان علي قد أجهد باله بمتابعة ماهر وأحواله، وجلس أكثر من مرة مع خميس جار ماهر وأوغر صدره تجاه جاره حتى صار بينهما جفاء وغلظة وقطيعة دون سبب واضح.

– ماهر دوره بكرة عشان يروي أرضه قبل المغرب، وزي ما هو متعود هيشغل مكنة الري ويروح يصلي، تيجي انت في ضلمة المغرب تفتح البوابة اللي بيحجز بيها الميه، هيفتكر إن خميس جاره اللي فتحها عشان يروي أرضه، هيتخانق معاه تقوم انت تضرب وانت مستخبي في الدرة.

بات عواد مندهشًا من عبقرية الشر: تخطيط أبالسة، دا أنت دماغك سم.

تلظى رأس علي بسمومه وخطط لنفسه أن يكون متواجدًا في مكان عام وقت الجريمة، كالذي يحدد نفسه آمنًا وقت حدوث الانفجار حتى لا تتعلق به أوهن خيوط الشك.

– ساعتها هاكون قاعد على القهوة شرقية البلد، لما اسمع صوت سلاحك هاجيلك بعد ساعة ومعايا الألف التاني.

هب علي واقفًا وقد عبأ جوفه بالسعادة وبدا كقائد ملأت بيارق النصر طريق عودته.

عواد: اقعد لحد ما اعمل لك شاي.

بمخالبه الناعمة مد علي يده وصافحه:

– بكرة نشربه لما تخلص يا بطل.

رمقه علي بنظره ماكرة وكأن قوارب عينيه ما زالت تحمل كثيرًا من الشر، ربما ترسو به غدًا على شاطئ ضحية جديدة.

❊ ❊ ❊

في مكتب جمال تسود روح جميلة بين العاملين، وكأن الأيام قامت بتصفية قلوبهم من كل ضغينة وحسد، ولم يبقَ في صدورهم مجالًا لتصيد الأخطاء أو افتعال الأزمات.

وقت الغداء جلس أشرف يأكل «بيتزا»، بينما أكل رفاقه كشري.

فقال شادي مازحًا مع أشرف: لو أبوك الحاج صالح عرف إنك بتاكل بيتزا كان طخك عيارين وغسل عارك.

فابتسم الجميع من مداعبة شادي وضحك سعيد حتى دمعت عيناه ومسح وجهه بمنديله:

– والله يا واد يا شادي انت دمك خفيف وهتوحشني لما أسافر السعودية.

أشرف بشجن: أنا مش عارف هنقضي أربع شهور في غيابك ازاي يا عم سعيد؟!

تبسم سعيد ليبث الطمأنينة في جوانحهم:

– مافيش أسرع من الأيام، خلوا بالكم من بعض وخلوا بالكم من الشغل.

محمود: حد يشرب شاي معايا؟

أشرف: ما تعملش حسابي أنا وعم سعيد علشان هنشرب كابتشينو.

شادي مداعبًا: هوَّ حداكم في النجع بتشربوا كبتشينو؟

أشرف بلطف: انت واخد فكرة عن الريف من أيام الأبيض واسود. إحنا عندنا في الريف عربيات هامر وبيوت على طراز الريف الإنجليزي وڤلل زي اللي بتشوفها في الأفلام.

قدِمَ جمال إلى المكتب ومازن في يده: السلام عليكم. فرد الجميع التحية.

مازن بفرح: إزيك يا عم سعيد؟

ابتهج سعيد وتهلل وجهه وقال:

– ألف مليون مبروك، حمد الله على سلامتك يا روح عمك سعيد، يا ما انت كريم يا رب.

قام سعيد وقبَّله ورفعه لأعلى والتقفه بيده.

جمال منتشيًا: إن شاء الله كل يوم هاجيبه معايا علشان يغير جو البيت.

وأشار إليه باسمًا وخطاه تسلك طريقها المعتاد إلى مكتبه:

– خليك مع عم سعيد يا مازن.

دلف جمال إلى المكتب بينما شادي ومحمود يداعبان مازن.

دلف أشرف مكتب جمال: لو سمحت حضرتك يا دكتور كنت عاوز أعرض عليك موضوع.

أومأ جمال برأسه وأشار إليه فجلس وقال:

– عمي سعيد مسافر كمان يومين، حضرتك اتفقت مع حد يشتغل مكانه فترة غيابه؟

جمال: ما اتفقتش مع حد، ولو عندك حد هاته بس يبقى عارف إنه هيشتغل أربع شهور.

العاقل من يستثمر أنصاف الفرص لعل بإحداها يصل جواد أحلامه إلى ما ترنو إليه نفسه.

فقال أشرف بحماس بالغ حتى لا يُضيع تلك الفرصة:

– موجودة يا دكتور، بنت واحد صاحبي ليسانس فلسفة. بنت مهذبة وهادية وهتخلي بالها من مازن.

أحس أشرف في نفسه بارتياح حيث أوفى بعهده مع فاتن التي ربما تجد ظلًّا ينساب في حياتها، تتدثر به من صقيع وحدتها وغربة الجدران الأربعة التي سئمتها.

* * *

صعد مصطفى السلم وولج باب الشقة فوجد باب الشرفة مفتوحًا، جلس على أريكته ووضع هاتفه ومسبحته على المنضدة وصاح مناديًا على داليا فأقبلت عليه ببسمتها التي ملأت وجهها نورًا:

– أنا بانشر الغسيل ومحمد واقف معايا.

مصطفى: بيتفرج على الزرع؟

داليا مترددة: ومش عاوزة أقول بيعمل إيه تاني.

مصطفى: بيعمل إيه الولد الشقي عرفيني؟

داليا باستياء: بيضرب بالنبلة.

مصطفى مازحًا: عقوبة مالية تقدر بحرمان يومين من المصروف.

ناداه بلطف فأتاه وأجلسه إلى جواره وأدناه ووعظه بما فيه نصحه وهداه، عادت داليا إلى الشرفة وأنصت محمد للحديث ووعاه.

بهدوء ورثه عن أبيه صاغ احتجاجه: لكن يا بابا انا باخلي بالي وبابقى حريص وانا باضرب، وبعدين النبي عليه الصلاة والسلام قال علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل.

شرح له مصطفى ما أخطأ عقله في إدراكه: مش دي الرماية المقصودة؛ إنما رماية السهم وما ورد في النبلة والخذف «إنها لا تصيد صيدًا، ولا تنكأ عدوًّا ولكنها تكسر السن وتفقأ العين».

محمد بثقة: يا بابا اطمن أنا باخلي بالي وانا بالعب.

مصطفى بتعجب: دا انت مصمم، طيب عرفني إيه الفايدة أو المتعة اللي فيها.

محمد: دي هواية بتشبع رغبتي، وبعدين ساعات باجيب بيها حقي.

مصطفى مستنكرًا: يا سلام! تجيب بيها حقك؟

محمد بحماس: وحق أبويا كمان لو لزم الأمر.

دلفت داليا من الشرفة وهي مضطربة وقالت وقد تملكها الذعر:

- الحقني يا مصطفى، أبويا بيتعارك مع خميس وماسكين في بعض.

هرول مصطفى على الدرج حتى وصل إليهما وحال بينهما وأمسك خميس ليبعده ومشى معه قليلًا فقال خميس في حدة:

- الراجل اللي الغضب عامي قلبه بيقول لي بتفتح البوابة ليه، حلفت له ما جيت ناحيتها مش مصدقني واللي في دماغه في دماغه.

قد أجحف بعقل ماهر سيل الهموم فاندفع الدم في عروقه بحرارة وتهور، فحين يغيب العقل لا يبدو من الإنسان إلا أنيابه. أسرع ماهر بفأسه ليهوي بها على خميس فأمسك به مصطفى واحتضنه حتى لا يرتكب جريمة ثمنها حياته، فوجد عواد الفرصة سانحة وأطلق رصاصته.

* * *

عاد منصور يمارس عمله بعدما تحسنت حالته وعبأ صدره بنسمات الأمل وانتظم نبض السكينة التي كان عليها من قبل يحيا، وابتهجت أيامه كسابق عهدها.

مر أشرف به في طريق عودته من عمله حاملًا بعض المراجع التي يتزود منه لتحقيق طموحه المهني الذي لم يدخر جهدًا في السعي نحوه.

- أخبارك إيه يا عم منصور؟

منصور: بخير والحمد لله، كنت فين يا هندسة اليومين اللي فاتو ما حدش شافك!

فقال أشرف والحزن يملأ فؤاده وقد تجلى على قسمات وجهه هم وغم:

- نزلت البلد، حضرت جنازة جارنا، كان راجل يا عم منصور قمة الرجولة، مربي أجيال فاضل نزل من بيته يفض مشاجرة، كان نصيبه طلقة خلصت عليه في الحال.

منصور مستنكرًا: انتم عملتم زي الصعيد وبتضربوا بالنار.

أشرف نافيًا: دي كانت مشاجرة بالإيد.

منصور مندهشًا: طيب ومين ضرب جارك بالنار؟

أشرف: مش عارفين؛ لكن فيه بلطجي اسمه عواد، تاني يوم الصبح لقينا جثته شرقية البلد.

اجتهد أهل القرية في الظن والتخمين للربط بين الحادثتين ولم تصل ظنونهم لشيء، وكثر الكلام المرسل ولم يقف أحد على الحقيقة، وعلى قدر فرحة الناس بموت عواد؛ كان حزنهم أشد لموت مصطفى شجرة الريحان التي كانت تفوح القرية بشذاها.

أشرف: على قد عمري اللي عشته ما شُفتش جنازة كبيرة كدا، مشهد ما يتوصفش والناس كلها كانت زعلانة عليه والطلبة بتوعه كانوا منهارين جامد.

منصور: ربنا يرحمه، السيرة الطيبة قاعدة.

تنهد أشرف بحزن على جاره صاحب المروءة ومسح وجهه بكفيه:

– هاطلع اريح شوية.

منصور: على قد ما انا حابب جيرتك انت دلوقتي بقيت مهندس قد الدنيا، والأوضة اللي على السطح ما عادتش تليق بيك.

كان أشرف طيب النفس يتودد للجميع، لم يستشرِ الغرور بنفسه بتواضع جم، يتعامل مع من حوله، ينثر حديثه ببساطة دون تكلف، لم يشغل باله يومًا كيف يراه الناس بأريحية تامة، يتحرك ويلهو دون قيود. بوجه واحد يحيا دون تلون.

– أهي حيطة بنتدارى فيها، وبعدين أنا اتعودت على الجيرة الطيبة دي. ما سألتش فاتن إن كانت مرتاحة في الشغل الجديد؟

منصور مبتسمًا: مبسوطة وكتر خيرك، بس هيَّ بتقول أربع شهور بس.

أشرف واعدًا: ماعلش دي حاجة مؤقتة وهادور لها على حاجة تانيه بعدين.

كانت نفسه تتلذذ دومًا بقضاء حوائج الناس، وخاصة من يفزع إليه منهم، اعتاد هذا الأمر منذ أيام صباه حين كان في الصف الثاني الإعدادي وطلب منه أحد أصدقائه أن يساعده في سداد دين مائة جنيه عن أمه الأرملة حتى لا تتعرض للسجن، فكان يذهب معه كل صباح إلى الترعة الكبيرة يصيد منها السمك ويذهب معه إلى سوق المدينة يبيعه ويعتلي شجرة التوت، فيحصد منها ما يبيعه في محطة القطار، أمضى شهرًا كاملًا في تعب ومشقة وكأن وجعه عزف تطرب منه نفسه حتى قضى ما على الأرملة من دين.

منصور مناشدًا: طيب ماعلش يعني ولو فيها رذالة خد العجلة واديها للأسطي ناجي، وبعد ساعة هاروح أجيبها علشان عاوز أروح بدري.

أشرف بغرابة: مش عارف ليه مغرم بالعجلة القديمة، ما تبيعها وتشتري واحدة جديدة..

تظاهر منصور بالابتسامة وقال: فرجه قريب.

أشرف متعاطفًا: إن شاء الله لما اقبض آخر الشهر أعمل معاك الصح.

شجرة تحجب ظلها عن أهلها أولى أن تُجتث من فوق الأرض ولا يبقى لها قرار. هكذا حدثته نفسه فاتخذ قرارًا بأن يبسط له كف الندى ويشق طريقًا لإحسانه إليه.

* * *

عاد كمال من عمله إلى المكتبة التي كانت تتجهز بالكثير من الأدوات المدرسية لاستقبال العام الدراسي، جلس كمال يرقب عن كثب التحضير والاستعدادات التي يقوم بها العمال، اقترب منه نصر وقد بدا عليه التوتر:

- فيه واحد قريبي قصدني أقول حاجة لحضرتك.

كمال: خير، إيه الحاجة دي؟

نصر: هو مؤهله بكالوريس تجارة وقال لي بما إن حضرتك مدير شؤون العاملين تقدر تساعده وتعينه وهو مش هيتأخرعليك في أي حاجة تتطلبها منه.

بدا على كمال الحماس: قول له تلاتين ألف جنيه ويعتبر نفسه متعين من بكرة.

نصر مذهولًا: يعني انت موافق يا أستاذ كمال؟

كمال: أيوة إيه المشكلة؟ وكل حاجة لها تمن..

نصر قد زال عنه توتره وروع قلبه وصار مبهوتًا من فرط دهشته من هذا الرمز الذي يراه بعين كبيرة كيف ينحدر بهذه السهولة إلى الهاوية ويتلطخ بكسب حرام لن يزيد ماله ويكثره؛ بل ربما اقتلع أوتاده وبعثره.

– دا انا كنت قلقان وانا باكلم حضرتك وكنت خايفك تزعل مني، دا قريبي بقاله شهرين بيزن عليَّ وقُلت له الأستاذ كمال مالوش في السكة دي، بس هو قال لي أكلمك مش هاخسر حاجة.

ارتسمت على ملامح كمال ابتسامة خفيفة وبادر نصر بسؤال ليدفع عن نفسه ظنونه السيئة التي نهشت في عرضه:

– انت معايا في المكتبة من سنين، تفتكر إني أوافق على حاجة زي كدا؟

نصر بثقة: طول عمرك دوغري ومالكش في الشمال.

رفع كمال رأسه ليبقى كبير الشأن في عينه كما كان وتنفس بعمق ورمقه بنظرة صارمة:

– ربنا يغنيها بالحلال وعلى قد ما اعرف باحاول أعمل خير على أمل إنه يفيد أولادي من بعدي.

صلاح الآباء ينفع الأبناء وهذه هي البضاعة التي ادخرها كمال لمستقبل أولاده، عسى الله أن يحفظهم، وطلب من نصر أن يخبر قريبه باستيائه ورفضه التام لهذا الأمر.

همَّ نصر بالانصراف ليتابع عمله فطلب منه كمال:

– هات لي العلب اللي في أول رف علشان نشيك عليها.

راشد مناشدًا: خليك انت اعمل لنا شاي وأنا هاطلع أجيبهم وامسك السلم بيَّ.

كان نصر مشتت الانتباه بين زميله الذي صعد السلم الخشبي وأكواب الشاي التي يقوم بإعدادها.

* * *

ركب أشرف الدراجة ومشى منتشيًا كأيام صباه في القرية، حيث كان يسابق أصحابه ولم يكن يسبقه أحد وتذكرعودته من المدرسة في أحد الأيام وسمر تمشي مع إحدى صديقاتها، فأراد أن يلفت انتباهها إليه فأسرع بدراجته حتى اقترب منهما ثم توقف فجأة ورفع الإطار الأمامي للدراجة لأعلى وأسندها على إطارها الخلفي، فاختلت قدماه وسقط على ظهره، فضحك منه أصدقاؤه وأطلقوا صيحات

الاستهجان فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه وأكمل طريقه إلى ورشة ناجي وأخبره:

– عم منصور هيعدي ياخدها بعد ساعة.

هز ناجي رأسه وقال معتزًّا:

– بقيت مهندس قد الدنيا ولسَّا نفسك بسيطة، ربنا يكرم أصلك يا بخت عم منصور بيك.

غرس والده صالح في نفسه أن من يكبرونه في السن قد سبقوه إلى طاعة الله، فينبغي أن يجلهم ويوقرهم ولا يرى لنفسه فضلًا عليهم مهما علا شأنه.

على صفحات وجهه بدا خجله من مدح ناجي له فأخفض رأسه ولم يقل شيئًا.

ركب ناجي دراجته وقال راجيًا:

– لو سمحت يا هندسة أنا هاوصل اشتري شوية طلبات من محل الجملة اللي في شارع سيف والصبي اللي معايا راح يجيب غدا، اقف استناه خمسة ولما ييجي قول له بيقول لك الأسطى ناجي سيب الشغل اللي في إيدك وصلح عجلة عم منصور الأول.

وقف أشرف قليلًا أمام الورشة حتى ألهبت الشمس رأسه وتلظت الأرض تحت قدميه فاندفع إلى الظل في الاتجاه المقابل.

أقبل هيثم ووضع الطعام الذي معه وجلس على الكرسي فمر عليه شابان في مثل سنه في طريقهما إلى مجموعات التقوية في المسجد المجاور، فأسند رأسه للحائط وأغمض عينيه وتذكر حلمه بأن يكون مهندسًا، فحطمت عصا أبيه مصباح أحلامه، وهوت على ما بقي من عمره فهربت أيامه مغلوبة، تجرع مرارة اليتم في بيته وغربته فلازمه الهم، توغلت صرخات اليأس في أحشاء كل فجر جديد يطل عليه وكأن الدنيا أنبأته أن أرض أحلامه ستبقى منطقة منكوبة.

خطى ناحية أشرف: الأسطي ناجي بيقول لك..

فتح هيثم عينه ليرى من يحدثه.. انتابت أشرف دهشة وفغر فاه وبقيت شفتاه مشدودتان لأسفل:

- ياه! هيثم إنت بتعمل إيه هنا؟

أصابت هيثم رجفة وهب واقفًا وقد تلعثمت كلماته:

- انت عرفت إزاي إني هنا؟

تبسم أشرف بهدوء: أنا مش جاي أدور عليك؛ لكن يمكن ربنا بعتني علشان أشوفك وارجعك لأهلك.

وكأن الكلمة قد صعقته فخفق فؤاده بشدة:

– ومين قال لك إني عايز ارجع.

أشرف: فيه حاجات كتير حصلت في غيابك.. أختك داليا اتجوزت الأستاذ مصطفى الله يرحمه.

زادت روعته وهزت الفاجعة كيانه بعنف:

– هو مات ليه؟ قصدي... مات ازاي؟

بكمد وحرقة قال أشرف: دي قصة طويلة يا هيثم، لما تروح البيت هتسمعها.

جثا هيثم على ركبتيه فقد أثقلت الصدمة جسده، فاستمال إلى الأرض وبكى عليه بفؤاده وإن لم تدمع عيناه.

ناشد أشرف عاطفة لمسها فيه من صغره: أبوك اتغير يا هيثم ومحتاجك ترجع علشان يتعكز عليك، وأمك واخواتك قلبهم محروق عليك، وبيتك وأرضك أولى بيك من الشقا والبهدلة اللي انت فيها.

لم يبقَ له طريق جديد للهروب، وباتت كل الطرق القديمة تناديه بالعودة. استوقفت كلمات أشرف جموح نفسه، وكأن أيام عمره حين اشتعلت بحطب التيه ونار الضياع أذابت جمود روح أبيه فوافق على العودة وطلب منه أن يتركه للغد حتى يعد حقيبة ملابسه ويسترد راتبه من ناجي ويودع أولاده فقد توطدت علاقته بهم.

أشرف: خلاص بكرة الصبح أعدي عليك ونروح البلد سوا وتبقى مفاجأة للكل.

عاد أشرف منتشيًا بهذه المفأجاة التي ساقتها أقدار الله في طريقه، يرجو ما بقي من يومه أن يمر سريعًا ليُدخل السرور على بيت جاره ويكشف عنهم كربتهم التي نزلت بساحتهم، ويطرد عن قلوبهم الجوع ويطعمها السعادة، أخذته أحلامه بعيدًا ونأت به أفكاره ورغباته وكأن نول الأمنيات الذي سيغزل به بهجة الأيام استقر بيده.

* * *

أكل الحزن كبدها على فراق زوجها، انتحبت عليه أيامًا وليالي، أفلتت منها صرخة وكادت تتبعها بأخرى فأدركتها وكبحت جزعها؛ فهي تعلم أن النائحة في النار إن لم تتب.

صفاء بشجن: يا بنتي كلي حرام عليكِ نفسك.

داليا باكية: عمري ما هاسامح نفسي، أنا السبب في موته، لو ما كنتش قُلت له ينزل ما كانش حصل له حاجة.

صفاء مواسية: يا بنتي قضاء ربنا نافذ لا محالة، ومافيش حد له في نفسه حاجة، وربنا يعوض عليكِ.

حياتها قبله كانت أشواكًا فأسكنها معه جنة الحب، استحالت رمادًا برحيله فاعتصر الحزن روحها، واغترف القلب من دموعه حتى

كلَّ. صارت الدنيا كاحلة في عينيها بعدما ترملت أحلامها بالسعادة واتشحت أيامها بالسواد وطال حداد قلبها.

وأدمنت روحها المكث في سرادق الأحزان، فهربت منها أمانيها ولم يبقَ لها إلا أمل تحمله في أحشائها:

– مش عارفة هاعيش ازاي من بعده، دا كان سندي في الحياة، وعمري ما شُفت حنية غير منه ولا حسيت بطعم الدنيا غير معاه.

وحده أقام جدار روحها لما أراد أن ينقض ولم يتخذ على ذلك أجرًا، لم تهنأ طويلًا بعطفه، طلقة غادرة سرقته منها فتلاشى ظل قلبها وأحرقته اللوعة، ولم تجد روحها من تتوكأ عليه، فبفقده لم يعد لها سند تلجأ إليه أو تتدثر به من بطش الأيام.

صفاء بأسى: طول عمره راجل وشهم وربنا يرحمه.

تنهدت داليا بحزن وقد امتزجت حروفها بالأسى:

– شهامته هيَّ اللي ضيعته، كان نفسي يعيش ويربي ابنه معايا.

منعت صفاء دموعها من التسلل وكأنها جرفتها بجفونها لمنبعها لتبدو متماسكة:

– هيتربى يا بنتي ويبقى أحسن راجل، منه لله المجرم اللي قتله هيروح من ربنا فين؟

داليا بكمد: هما ما وصلوش للقاتل؟

صفاء: أبوكِ قال النيابة حفظت القضية علشان الله يرحمه ما كانش له عداوة مع حد.

داليا متعجبة: وجثة المجرم اللي لقوها.

صفاء بحنق: اللي زي عواد دا بلطجي ومشاكله في الجيرة كلها، تلاقي حد صفى حسابه معاه.

تساءلت داليا عن حقيقة ما سمعته من صديقات وجارات ركضن إلى بيتها ليقدمن لها واجب العزاء:

– الناس بتقول اللي قتل مصطفى الله يرحمه وعواد شخص واحد، نفس نوع الرصاص.

صفاء بأسى: الاتنين راحو وسرهم اندفن معاهم وقادر ربنا يظهر الحقيقة.

تنهدت داليا بحرقة ولم يعد بوسعها أن تتكلم، احترقت سنابل الكلمات في فمها، وبقي رماد الأمل بين يديها، فعبأت منه حقائب الأيام عسى في الغد ينفعها.

* * *

وقف علي يتابع السيارة التي تجمع القمامة من أمام بيته وبيوت الجيران في قلق وتوتر.

ولم تهدأ أنفاسه حتى غادرت السيارة القرية إلى مكان تجميع القمامة بإدكو، وعادت مرة أخرى ودار بخلده لقاؤه الأخير بعواد في وكره شرق القرية:

- انت صنعتك كبرت ولا إيه؟

زفرعواد وقال بحدة: هو نصيبه كدا، والمكتوب ما في منه مهروب، إيدك بقى على الألف الباقي.

ناوله على المبلغ المتبقي وقال:

- عمومًا تسلم إيدك ويسلم الفرد اللي ضرب.

فقبل عواد سلاحه وقال في زهو:

- دا رفيق كفاحي.

علي: هات أبوسه أنا كمان.

وما إن استلمه حتى أفرغ رصاصة في رأس عواد وأخرى في صدره، أراد أن يكتب هو الفصل الأخير في حياة عواد بسطور من الدم، فلو طالت به حياة وأدركته يد العدالة ربما أفشى سره ليشاركه العقوبة فقال بغيظ:

- غبي وما بتعرفش تتصرف، وكان لازم تموت ويموت سرك معاك.

زفر علي بغضب وصاح بقوة وهو يحد النظر لدماء عواد التي روت وكر إجرامه.

أخذ المال وأعاده إلى جيبه وعلى صدره اعتلى ليقضي على أسطورة الشر الذي روعت الجميع، ويهزأ بالرمز الذي فرض جبروته دون رادع، صريعًا خر تحت قدمه ولو شاء لشرب من دمه؛ ولكنه تعفف ركب فرسه وعاد إلى بيته واضطربت أفكاره ماذا يصنع بهذا السلاح الذي أخفاه في طيات ملابسه ولمَ لم يتركه إلى جوارعواد؟ ولكنه خشي أن تكون بصماته على السلاح هي الخيط الصغير الذي يلف حبل العدالة حول عنقه ليُقتص منه في جريمتي قتل، الأولى محرضًا والثانية وغدًا قاتلًا.

عمد إلى عنزة صغيرة عنده ووضع لها سم فئران في الطعام فلما نفقت قام بفتح بطنها وأخفى السلاح فيه، وقام بربط بطن العنزة بالخيوط ووضعها في جوال قد أحكم غلقة وألقاه في القمامة.

* * *

عاد هيثم إلى بيته لعل مستقبلًا أفضل ينتظره، وحياة كريمة تمد كفها له بالنعيم، ولعل ابتسامة طُمست ملامحها على شفاه أهله ترتسم مرة أخرى بعدما دارت عليهم رحى الأيام، وقد اختلطت مشاعره

بين الفرح والحزن وبدا عليه تأثره بموت أستاذه وأصابه الغم لترمل أخته.

أقبلت أمه عليه كالبرق واحتضنته وظلت تبكي:

– هنت عليك يا هيثم تسيبني؟ دا أنا من يوم ما مشيت ما حسيتش بطعم الدنيا.

نظرت في وجهه وقبلته وأحاطت وجهه بيديها وظلت تتطلع فيه:

– ملامحك ما غابتش عني ولا لحظة، طمني يا هيثم كنت بتاكل وتاخد بالك من نفسك؟

أتت بسمة واحتضنت ما بقي من جسده خارج أحضان أمه، أخبرته أنها دخلت المدرسة وقد أبت نفسها الحلوى من يد غيره، ولم تركب الأرجوحة من يوم غيابه، وقالت:

– أنا بحبك يا ربنا علشان رجعت لي هيثم، اوعى يا هيثم تسيبني تاني، أنا فضلت صايمة يومين لما مشيت وما كلتش حاجة غير لما حسيت بالتعب.

ظل هيثم يتجول بعينيه في أرجاء البيت الذي افتقد دفأه في الشهور الماضية، فقد كان له في كل زوايا البيت موقف وقصة، فوجد القفل ما زال على باب غرفته صامدًا لم تاخذ أيام غربته شيئًا من صلابته

وعناده، أكملت عيناه جولتها لتبحثا عنها فلم يجدها فظنها تحطمت ولم يبقَ لها أثر، أقبل عليه أبوه ويده خلف ظهره فقام هيثم ليحتضنه ويُدثر به فؤاده المرتجف من صقيع غربته، فانهالت عليه عصا أبيه التي ظنها تحطمت لتُجهز على ما بقي من أحلامه فاستيقظ من نومه فزعًا، وانتظر حتى جاء ناجي وفتح الورشة فغافله ومشى يهرول في الطرقات، يزرع الأرض خطى مذعورة حتى تناثرت عزيمته وكلت قدماه وظل ينظر خلفه ويعدو ما استطاع.

حتى أعياه الجوع والتعب وامتقع لونه ولهثت أنفاسه فتوقفت خطاه أمام أحد المطاعم ليأكل شيئًا يتقوى به على فراره من ماضيه الذي داهمه فجأة.

نصر: اتنين سندويتش بسرعة علشان مفيش حد في المكتبة.

عامل المطعم: وراشد فين؟

نصر: وقع من على السلم ورجله انكسرت وهيقعد في البيت شهر وأنا شايل الشغل لوحدي.

انصرف نصر وهيثم يتابعه بنظراته:

- اتنين سندويتش أنا كمان لو سمحت.

بدت على هيثم الحيرة فقال:

- بعد إذنك هو الراجل دا شغال في مكتبة إيه؟

عامل المطعم: بتسأل ليه؟

هيثم: أصل بادور على شغل وسامعه بيقول لك إنه شايل الشغل لوحده..

عامل المطعم: مش كنت يا ابني اتكلمت معاه وسألته..

هيثم بشجن: مش عارف ليه لساني اتعقد واتحرجت اتكلم معاه.

عامل المطعم: عمومًا هو شغال في مكتبة الضحى أول يمين هيقابلك.

لم تبقَ في رأسه فكرة إلا وتألمت بعصا أبيه، فقرر المضي في طريق مناصه ولم يلتفت، انتهى من طعامه وبدأ يلملم شعث نفسه ويروض أفكاره ليبدأ رحلة البحث عن عمل يتوارى فيه عن عيون أشرف الذي ربما يكرر البحث عنه حتى يقتاده عنوة لمنزله.

وصل إلى المكتبة فوجد نصر يتولى حركة البيع وحده، فانتظر دقائق يستجمع فيها قوى روحه الهاربة من فزع رؤيا منامه.

ثم اقترب منه: لو سمحت مش عايزين حد يشتغل معاكم؟

نصر مستعلمًا: كنت شغال فين قبل كدا؟

هيثم بأسى: كنت شغال في ورشة عجلاتي والشمس كلت وشي.

نصر متعاطفًا: اقف هنا خمسة الأستاذ كمال بيعدي عليَّ في طريقه وهو رايح الشغل.

هواجس كثيرة تراكمت في رأسه وظل يتابع كل الطرق المؤدية إلى المكتبة خشية أن يأتي أشرف ولا تفلح محاولات التفلت منه، طغى توتره على شجنه لفراق ناجي وأسرته، وكأن قلبه اعتاد وخز الحرمان.

أتى كمال وتبادل التحية مع نصر.

نصر: الشاب دا بيسأل على شغل.

كمال متفحصًا براءة ملامحه التي لم تسرقها أحزانه: انت منين؟

هيثم: أنا من دمنهور.

كمال بلطف: أنا مش محتاج حد يشتغل معايا؛ لكن عندي عامل واخد أجازة شهر، فلو حبيت تقعد معانا شهر مافيش مشكلة.

فرصة للتخفي ومحاولة للاختباء من جاره الذي ساقته الأقدار إليه رحب بها على الفور، لعل محاولته في الفرار تفلح هذه المرة، حدثته نفسه أن يمكث بالمكتبة شهرًا ثم يفر إلى مطروح ومنها إلى ليبيا ليترك حدودًا جغرافية تحول بينه وبين ماضيه.

* * *

أيام طيبة عاشها جمال حين استعاد مازن روحه المرحة التي افتقدها بموت أمه. جلس منتشيًا بجواره على الأريكة يرتشف قهوته، وأعطاه

هاتفه يلهو به ويمارس ألعابه، فلما انتهى وضع مازن الهاتف على المنضدة، اقترب منه جمال وأحاط عنقه بذراعه وقال له في حماس:

- اعمل حسابك يا بطل المدارس الأسبوع الجاي.

مازن بفرح: طيب نبقى نروح مكتبة خالو كمال واجيب أدوات المدرسه من عنده.

جمال مستنكرًا: بلاش مكتبة خالك كمال علشان مش هيرضى ياخد فلوس مننا.

تعجب مازن وأبدى دهشته: هيا دي مش مكتبة ماما؟ حتى اسمها مكتبة الضحى!

ارتفع صوت جمال قليلًا: اسمع كلامي يا حبيبي علشان فيه مشكلة هتواجهنا عاوزين نفكر في حل ليها مع بعض.

يكبُر بدن الصبي عندما تُطعمه ويكبُر عقله عندما تحاوره، فقصد جمال أن يعلِّمه صيد الأفكار ليُطعم رأسه بحكمة الكبار.

مازن: مشكلة إيه يا بابا؟

جمال واجمًا من معضلته: أنا هاوديك المدرسة الصبح؛ لكن مين هيروح يجيبك؟

تهلل وجه مازن وصدح بحماس: خلي فاتن تروح تجيبني.

من فرط حبه لفاتن شغف بقربها، واسترخى قلبه الصغير للمستها الحانية عليه.

جمال مستنكرًا: يا حبيبي مش هينفع نتعبها معانا للدرجة دي..

مازن بشغف: لكن أنا باحبها وباحب أقعد معاها علشان هيَّ طيبة زي ماما.

لم ترُق هذه الفكرة لجمال وسجل احتجاجًا مبررًا بدافع عطفه على فاتن:

- مش هينفع تجيبك كل يوم؛ الأمرهيكون شاق عليها، لازم نشوف حد تاني.

أراد مازن أن يجعل لفكرته وتدًا يحملها بقوة شرعية فتمكث في بيتهم مليًّا، مناشدًا في قربها مودة ورحمة وقبسًا من حنان والدته:

- طيب خليها تيجي تعيش معانا في البيت.

وكأنه ألقى حجرًا في مياه قلبه الراكدة، فمنذ وفاة ضحى ومشاعره مكبلة، وقد وضع سياجًا على قلبه حتى لا يتسرب إليه شيء من الحب، فقال بعدما فهم مغزى الكلمات البريئة:

- تعيش معانا بصفتها إيه؟

مازن: انت قُلت لي عاوز تجيب واحدة تعمل أكلنا وترتب البيت وتبات في أوضة ماما.

جمال مستاءً: ما هو انت رفضت يا مازن.

انتشى مازن وكأنه يستحضر روح أمه وشبيهتها روح فاتن:

– أنا موافق علشان فاتن طيبة وهادية وبتتكلم وهيَّ بتبتسم زي ماما.

فتاة مثالية نقية، على قدر عالٍ من الأخلاق، في غضون شهر تعلق بها مازن وغزا حبها قلبه الصغير بعدما عوضته عن عطف أمه الذي افتقده، بسجيتها تتعامل دون تكلف، عليها هالة من جمال الروح تستوطن بها قلوب من حولها، ربما كان بمثلها يحلم من أجل مازن أولًا، أنست روحه بكلمات صبيه التي أكدت رؤيا منامه بالأمس؛ فقد رأى أنه يقف بين المقابر وقد فقد نعليه ومشى حافيًا قليلًا حتى وجد غيرهما.

مازن متحيرًا: بابا سرحت في إيه وما رديتش عليَّ؟

استعاد جمال أفكاره الشاردة وابتسم ابتسامة خافته فربما في الغد تسطع شمس أحلامه ويغترف غرفة بيده من نهر السعادة، ويجد ما يقيم به روحه وتطرب به حياته:

– هنتكلم في موضوع فاتن بعدين وبالنسبة لموضوع المدرسة هتخلص وتروح تستناني في مكتبة خالك كمال لحد ما اخلص

محاضرات واروح اجيبك تقعد مع فاتن في المكتب والعصر نرجع البيت سوا.

ساعات قليلة تفصله عن استطلاع هلال أفراحه، فربما في الغد تُعلق الزينة على واجهة أيامه وتتلألأ أنوار أمانيه وتُشَدُّ رحال مشاعره العطشى إلى ضفاف قلب فاتنته.

* * *

ارتاد أشرف الورشة منتشيًا بالمفاجأة التي ستملأ بيت جاره بالسعادة، وغمرته فرحة خاصة أنه من سيعيد هيثم إلى أحضانهم:

- صباح الخير يا معلم ناجي، هيثم فين؟

ناجي يضرب كفًّا بأخرى وقد بدت عليه الحيرة:

- أنا فتحت الورشة ويا دوب رُحت أصبح على عم حسن البقال وقفت معاه خمس دقايق ما لقيتش هيثم فقُلت يمكن راح يجيب فطار، ولما غيب دخلت اطَّلع الشغل من جوَّا فما لقيتش فرشته ولا الشنطة بتاعته، ومش عارف يكون راح فين وليه يمشي من غير سبب، ولحد امبارح قاعدين بنضحك مع بعض ونرتب مشوار للمصيف..

أحس أشرف بالندم على تركه البارحة بعدما تظاهر برغبته في العودة، فهل كان يخدعني لهذا الحد أم إن عصا أبيه اعترضت طريق

عودته أم استهوته حياة التشرد؟ أسئلة كثيرة حطت رحالها في رأسه ولم ترجع بشيء.

– كان لازم أكلم أهله في الحال علشان ياخدوه.

ناجي مندهشًا: انت تعرفه منين يا هندسة؟

اغتم أشرف لتفلت هيثم منه: هيثم ابن جارنا هرب من البيت بسبب قسوة أبوه.

ناجي مصدومًا: بقى كدا يا هيثم؟ تكدب عليَّ وتقول لي أبوك ميت!

كانت مشاعر ناجي مزيجًا من السخط والحزن بعدما ضمه إلى أولاده وسامرهم ولاطفهم وأحبه الجميع، فلمَ تسلل من بينهم بلا استئذان ولم يراعِ العشرة ويصُن المعروف؟

بدا أشرف واجمًا وكأنه ليس هنا وكأن روحه ذهبت إلى القرية لتخبر أهلها بحماقته.

أفصح ناجي عن أمانه في عنقه: عشان الحلال والحرام هيثم له قبض الشهور اللي فاتت معايا لو ما رجعش هاديك الفلوس توديها لأهله.

عبس محياه وثقل رأسه على صدره: مش مهم الفلوس؛ المهم إنه يرجع تاني.

صمت أشرف قليلًا وصارت ملامحه غائمة كليالي الشتاء، وتراودت إلى ذهنه أفكار كثيرة، وبدا عاجزًا قليل الحيلة بعدما هوى عليه سقف أمانيه.

تحسست أفكار ناجي خطى هيثم: هو اتعلم الشغل وبقى شاطر، وغالبًا لو هيدور على شغل هيشوف ورشة في نفس المجال.

شبَّ بأشرف حزن بالغ وحسرة تردت في أعماقه:

- انت مش متخيل حرقة قلب أهله عليه، وكان نفسي أفرحهم برجوعه، إنما كدا مش هاقدر أجيب لهم سيرة على اللي حصل، إنما اللي أقدر أعمله إني ألف على الورش ساعة كل يوم لحد ما الاقيه.

مشى وريد الحلم ينزف فوق أرض المتعبين، تبددت أحلامه واحترقت مشاهد الفرحة التي رسمها بخياله ليلة أمس، فكلت روحه وأجهدها التعب.

ناجي واعدًا ومتوعدًا: أنا من ناحيتي لو جالي تاني مش هاسيبه يمشي أبدًا، حتى لو حكمت الظروف أقفل الورشة عليه لحد أهله ما ييجوا يستلموه.

أشرف راجيًا: تليفوني معاك يا معلم ناجي لو عرفت أي معلومة تبلغني على طول.

تحجرت مشاعره وبدا صوت عقله يبيد ولم يعد يذكر إلا وعد هيثم له بعودته في يديه، والوعيد الذي سيجده من ماهر لو علم بتفريطه في الأمل الذي يحيا عليه.

* * *

وجع الفراق كان أشد عليها من وجع حملها.. حزينة كانت كالأيام التي تنساب من عمرها.. شعرت بجانب كبير من روحها ينطفئ.. هشم الحزن قلبها حتى فتته.. جردت أيامها منه فلم يبقَ لها شيء من ماضيها.. شاردة الذهن بالساعات الطوال تجلس وحدها.. فكانت تذرف الدمع أحيانًا وتبتسم ابتسامة خفيفة أحيانًا أخرى... على حسب ما تجود به الذكريات معها، فلم تعد تحمل أوتاد عمرها إلا ربيعها معه... هالات سوداء افترشت روحها لم تدرِ لها بلسمًا... فكثيرًا ما ساقها الحنين إليه... خصلات شعرها افتقدت لمساته الحانية.. طفا القلب بأوجاعه وتململ وسكب منها نذرًا يسيرًا.

وضعت حملها في بيت أبيها بعدما أصرت أمها أن تكون أيام حملها الأخيرة بالقرب منها.

صفاء: مبروك ما جا لك يا داليا.

بقلب مكلوم وصوت صبغته الأحزان نثرت حروفها:

- الحمد لله، كان نفسي مصطفى يبقى عايش ويكون أول واحد يشيله ويفرح بيه.

تجرع وليدها اليتم من قبل مولده، فأشفقت عليه وعلى نفسها وعلى عزيمتها المهيضة. حسرة ودمع وثكل وعجز وضعف ويتم، ماذا تصنع وحدها بكل هذه التركة الكبيرة من الوجع والمعاناة؟

صفاء مواسية: نفسك معاه بالدنيا، هتسميه إيه يا حبيبتي؟

داليا تتطلع في محياه وتقبل كفه: هاسميه أمل.

صفاء بدهشة: أمل إيه؟ دا راجل قد الدنيا..

داليا بتحنن: مصطفى الله يرحمه هو اللي مسميه، وقال لي هيبقى أمل ليكِ، زي ما يكون قلبه حاسس إنه هيحصل له حاجة ومش هيفرح بيه.

بمحراب عينيه ظلت ضارعة وكأنها تتأمل وجه أبيه في ملامحه.

صفاء راجية: أمل أمل ربنا يخلي ويعوضك عن أبوه خير.

أمل جديد بدأ يتدفق في أروقة نفوسهم فتشبثت به عيونهم ترجو به البشارة بعدما توغلت الأحزان في أحشاء حياتهم.

انتجهت داليا أصولًا وعرفًا مُتبعًا: ابعتي يا ماما للست أم محمد وعرفيها إني وضعت بالسلامة.

صفاء بجزم: حاضر يا بنتي هاجيب لك تاكلي واروح أبلغهم.

داليا مستعلمة: هي سمر لسَّا ما جاتش من الكلية.

صفاء: اتصلت بيَّ وقالت لي إنها هتيجي بكرة.

بحثت داليا عن سند تتوكأ عليه هي ورضيعها تناجي فيه العطف، تواسي به يومها وغدها، ويحنو على أملها ويترفق به.

– هو بابا فين ييجي يشيل أمل ويكبَّر في ودانه؟

صفاء: راح الصيدلية يجيب أعشاب وحفاضات للغالي ابنك.

تنهدت داليا وذرفت دموعًا حارة وضمت أمل إلى صدرها لعل أنفاسه تُطفئ حرارة الحزن في حناياها:

– ادعي لي يا ماما ربنا يعوض عليَّ بالخير.

تضرعت صفاء وابتهلت عيناها:

– داعيالك يا بنتي والله على قد نفسك الطيبة ربنا يديكِ. بس هنعمل إيه؟ حظك في الدنيا شوية، لا لبستِ فستان فرح وفرحتِ زي بقية البنات، ولا جوزك عايش يربي معاكِ ابنك، مش بعيد على ربنا يعوضك في اللي جاي.

نكتت كلمات صفاء جراحًا غائرة في قلبها، فتعالت على أحزانها وأكوام من أوجاع سكنت روحها وتدرعت بما تحمله من إيمان وقالت:

– كانت جدتي الله يرحمها بتقول الصبر نص الدين، وانا صابرة على اللي انا فيه وراضية بنصيبي والحمد لله.

فالمرء يُبتلى على قدر دينه فكان الأمل يحدوها بجزاء الصابرين، وكم سألت الله في سجودها الرضا بعد القضاء، ولم تشأ أن تجمع بين وقوع المصيبة وضياع والثواب، وكان ما وقر في قلبها من إيمان دعمًا لروحها لتتجاوز محنتها.

* * *

فتح خزانة ملابسها وتأمل ما فيها وتناول بعضًا من ثيابها وضمها إلى صدره، يدثرها بعطفه، ويروي بها ظمأ روحه، ذكريات شتى تزاحمت برأسه مع كل ثوب له قصة وطرفة وهمسة وبسمة تناول حذاءها فمسح عنه غباره وأعاده إلى موضعه، بقايا عطرها التي كانت تنثره في كل لقاء حميمي أثارت مشاعره التي تبلدت، معطفها الجلدي الذي اشتراه قبل موتها بيوم واحد بدا وكأنه يئن وينعي حظه فلم ترتدِه أبدًا، وتذكر يوم أن أهداه لها أنها قالت ستعود جميلة كيوم عرسها حين ترتديه.

ظل واجمًا يرمق ملابسها وكأنها اقتربت منه تحتضنه وتضع يديها على عينيه، لمساتها الحانية ما زال يشعر بدفئها على جسده، كلماتها الناعمة كلما تذكر بعضها انتشت روحه، تزاحمت في صدره همساته معها فاشتد حنينه إليها، في كل زوايا البيت كان يراها، فكم صلى معها قيام الليل! وكم جلست في غرفة مكتبه تسامره! ويوم أن وضعت مازن كيف أمضيا هذه الليلة مع بكر الأحلام، اضطجع على فراشه وأغمض عينيه فرآها تجلس تمشط شعرها، فاقترب منها وتطلع في ملامحها، أطال نظره إليها دون كلام، اختلست النظر إليه ثم أدارت وجهها وكأنها غاضبة منه، لم يدر ما يصنع، طال صمته مجددًا فبادرته بسؤال من ارتدى معطفها الجلدي بعد موتها، تعجب وأصابته دهشة فذاك الأمر لم يحدث، فأومأت برأسها وكأنها تُصدِّق على قوله، تناولت صورة مازن من أمامها وأخفتها بكفها فمد يده ليأخذها فأبت وهبت واقفة وفتحت خزانة ملابسها ووضعت الصورة في معطفها الجلدي وناولته إياه وأومأت برأسها وابتسمت ولم يعد بوسعه أن يتخيلها.

أغمض عينيه مرارًا ليستحضرها مجددًا فاستعصت على أفكاره، وكأن خواطره رسمت له هذا المشهد لتؤكد مباركتها لما يريد.

* * *

لمس كمال في هيثم خصالًا طيبة، وقد اختبر أمانته أكثر من مرة، وسمح له بالمبيت في المخزن الذي يبعد عن المكتبة بثلاثة شوارع، فكان عند كل مساء يُغلق النوافذ على ماضيه القريب في بيت ناجي الذي كان يحنو عليه ويهدئ من روع أيامه المضطربة. ساعات ثقيلة كانت تمر عليه والحنين يمزق أحشاءه لملاعب صباه وأصدقاء الدراسة، وظل حنينه الأكبر ينتابه لشقيقاته وأمه، فكان يدفعه ما استطاع حتى لاينظر خلف ظهره مجددًا ويبقى مع الأيام جلدًا غير آيل للسقوط. فكان يبتسم كثيرًا، وربما ضحك قهقهة حتى لا يسمع أنين نفسه تارة، وربما ليواري الخراب الذي حل بداخله تارة أخرى.

وفي ظهر السبت الأول من أيام الدراسة اصطحب كمال هيثم معه إلى مدرسة مازن، فلما عاد الثلاثة إلى المكتبة جفف كمال عرقه وقال وهو يبتسم بهدوء:

- كل يوم الساعة واحدة تروح تجيب مازن من المدرسة وآديك عرفت الطريق، ويفضل قاعد معاكم لحد الدكتور جمال ما يرجع من الكلية ويعدي ياخده.

أخذت دقات قلب هيثم تعلو وارتجفت أفكاره فربما في ذهابه وإيابه يُمسك به أشرف ويعود به إلى تنوره فينصهر ما تبقى من روحه ويموت كمدًا.

نصر مناشدًا: تعالى يا هيثم اركب العجلة وهات من المخزن عشر دفاتر حلزوني كبير.

كمال بهدوء: سيبه شوية لحد ما يريح من المشوار، تعالى يا مازن اقعد واقعد يا هيثم انت كمان.

صوب كمال نظره إلى هيثم وقال:

– عاوزك تخلي بالك من مازن، دا ابن أختي الله يرحمها، وعاوزك تعامله كويس علشان يحبك، وانا هاوصي الدكتور جمال عليك يشغلك عامل عنده في المكتب، انت شكلك ابن ناس ومحترم والدكتور جمال بيحب النوعية اللي زيك.

طربت مسامعه بثناء كمال عليه فاحمر وجهه خجلًا وسرت السكينة في حناياه وهدأت أفكاره، فربما في هذا العمل الذي يترقبه تكون له حياة جديدة آمنة بلا مخاوف أو مطاردات.

– انت من دمنهور نفسها يا هيثم؟

هيثم: لأ من أجوارها.

كمال: صح كدا لهجتك بتقول إنك ريفي.

خفق قلب هيثم فربما يخوض كمال في تفاصيل حياته وينكت جراح قلبه، وكأن حياته الخاصة جرح عميق تؤذيه اللمسة الحانية!

اقترب نصر منهم وقال بصوت حزين:

- لو سمحت يا أستاذ كمال والدتي تعبانة وعاوز اروح أكشف عليها وعلى العصر هاكون هنا.

كمال: ربنا يعافيها وتقوم بالسلامة، اتفضل روح مشوارك وربنا يطمنك عليها، ولو لقيت نفسك هتغيب رن عليَّ.

غيرت كلمات نصر مجرى الحديث الدائر وكأنه دون قصد ربت على قلب هيثم الذي سار بالدراجة يتلفت حوله وهو في طريقه إلى المخزن، كأنه يبحث عن وجه أشرف بين المارة. حتى اصطدم برجل عجوز عنَّفه على عدم انتباهه.

* * *

اجتمع زملاء العمل لتناول الغداء فور انتهائهم من الرد على مكالمة سعيد من مكة، حيث اطمأن على الجميع ودعا لهم.

أبت فاتن أن تشاركهم الطعام فقام أشرف وقدم لها بعض «السندويتشات» فأخذتها منه وقامت لتعد الشاي.

جلس محمود وأشرف يتحدثان في شؤون العمل بينما وقف شادي في الشرفة يطالع صفحات «الفيسبوك».

قدمت فاتن الشاي إلى محمود وأشرف وسألت عن شادي.

تلفت أشرف حوله: شادي في البلكونة.

اقتربت فاتن منه وقالت بلطف: اتفضل الشاي يا باشمهندس.

تظاهر شادي بالوجوم: أنا بصراحة عاوز أشرب شاي؛ لكن مش عاوز آخد حاجة منك.

فاتن بشجن: ليه يا باشمهندس أنا زعلت حضرتك في إيه؟

تخلى شادي عن وجومه المصطنع: أنا عزمت عليكِ تاكلي معانا ورفضتِ، ولما أشرف قدم لك الأكل أخدتيه منه.

بلطف حاولت أن تضع تفسيرًا لما حدث: حضرتك تلاحظ إني بانادي أشرف باسمه المجرد؛ لأني أعرفه من خمس سنين، وبييجي البيت عندنا كتير، وأنا معاكم في المكتب من شهر تقريبًا، فطبيعي يكون فيه شوية خجل وأرجو ما تكونش زعلان مني، ما قدرش احرجك والله.

شادي معاتبًا: خلاص سماح المرة دي بس تكون آخر مرة.

فاتن وقد غمزت بإحدى عينيها وقالت بمرح:

- بصراحة ما اقدرش أوعدك إنها تكون آخر مرة.

شادي بحدة صوت في نبعها وكأنها لم تنضج بعد:

- يعني انتِ ناوية تحرجيني تاني؟!

ارتسمت على محياها ابتسامة خجلى كعروس في خدرها:

– انت ونصيبك، فاضل مرة أو مرتين كمان لحد ما اتعود عليكم.

شادي مشاكسًا: لا دا كدا أزوركم في البيت واشتكي منك لعم منصور.

فاتن راجية: طيب بلاش شكوى ربنا يكرم أصلك.

تذكر شادي أيام طفولته حيث كان يدق على باب الجيران ثم يعدو ويترقب من بعيد ردة أفعالهم، فعاوده الحنين لهذا الصنيع.

– طيب آجي البيت أزوركم من غير ما اشتكي؟

لم يعدو شادي هذه المرة؛ بل وقف يترقب أثر دقته الخافتة على باب قلبها.

فتخضب وجهها خجلًا وألصقت عيناها بالأرض. اقترب أشرف منهما مداعبًا:

– هو الشاي في البلكونة له طعم تاني؟

شادي مبتسمًا وكأنه يروي قلبه برذاذ الحب في عينيها:

– صدقني نفس الطعم وتعالى جرب بنفسك، أنا داخل أشوف شغلي.

جلس شادي على مكتبه وهو يتطلع إلى السقف وأرجع رأسه للوراء وأسنده بكفيه وابتسم منتشيًا، فربما يجد فردوس أمانيه وبستان

نزعاته التي ينشدها مع هذه الفتاة الرقيقة التي غلَّفت سحر أنوثتها بحياء جم.

حيث بهاء المرأة في حيائها، ولها في سترها رونق، فرست على شاطئها مركب أحلامه.

دخل جمال المكتب وسأل عن أشرف ومازن يتفلت من يده ويركض نحو فاتن التي احتوته بين ذراعيها ورفعته لأعلى وغطت وجهها به حتى لا تفضح الصب عيونه.

دلف أشرف مكتب جمال وأغلق الباب: إزي حضرتك يا دكتور؟

جمال بتودد: بخير، اتفضل، عاوز أعرف رأيك في فاتن من حيث الطباع والأخلاق.

ابتسم أشرف ابتسامة خفيفة وكأنه توقع ما وراء السؤال:

- إنسانة طيبة وعلى طبيعتها، بنت نقية بجد وأهم ميزة فيها إنها بتستحي في زمن عز فيه الحياء. لكن اسمح لي أكيد في حاجة ورا سؤال حضرتك عنها..

أسرها جمال في نفسه ولم يبدها له: بعدين هاقول لك.

وكأن أشرف الذي خرج توًّا يُحدثه عن ضحى دون أن يدري فانتشى بكلماته التي أماطت الأذى من طريق قلبه وسكبت فيه الغرام،

وقد اختارها مازن من قبل فتمدد هيامه في حناياه وغمرته الأفراح، فربما حان الوقت ليسجل توقيعه بالحضور في دفتر، الحب ولعل معها وفي جنبات روحها يجد دار خلده فتأوي إليها نفسه وتكون ظلًا جديدًا يروي به قلبه بعدما أكلت منه ألسنة الوجع حتى ضجت، وتمادى في أحلامه بالنعيم ليُطعم رغباته التي اشتد بها الجوع من جنتها.

ولم يقطع سيل أحلامه إلا دقات شادي على بابه:

– لو سمحت يا دكتور كنت عاوز حضرتك تساعدني في موضوع.

بقيت نشوته ترتع بداخله حتى بدت على وجهه متخطية كل حواجز وقاره: اتفضل. موضوع إيه؟

تدفقت السعادة في وجه شادي وانسابت مع كلماته:

– بصراحة أنا نويت اتجوز وعاوز حضرتك تفاتح العروسة.

جمال متعجبًا: هو أنا أعرف العروسة؟ مش واخد بالي بتتكلم عن مين.

شادي منتشيًا: عاوز حضرتك تكلم لي فاتن وتشوف رأيها فيَّ علشان أتقدم لها رسمي. أنا ما رضيتش أخلي أشرف يفاتحها علشان عارف حضرتك هتحلي بضاعتي قدامها.

هوت كل أحلامه واستحالت نشوته غمًّا سرابًا لم يجده شيئًا عندما اقترب من تحقيقه. أمنيات حدثته نفسه بها، صارت رمادًا اشتدت به ريح عقيم، تعثرت أحلامه على باب قلبه ومعها تعثرت كلماته ولم يدر ما يقول لمن جاء يستل أفراحه.

أومأ برأسه ثم جاهد نفسه ليرسم ابتسامة كاذبة على وجهه:

- مبروك مقدمًا.

غادر شادي الغرفة ومكث جمال على مقعده واجمًا فقد تبخرت آماله بعدما طعن شادي وريد سعادته دون عمد، فتجلت في عينيه حسرة كفارس مغلوب وقف ينادي في طلائع مشاعره بالرحيل، فعادت أمانيه من حيث أتت منكَّسة الروح فبقي تائهًا بين دروب أفكاره.

أغمض عينيه وأمال رأسه للخلف وتنهد عقد يديه على صدره وهز رأسه برفق لعل أوجاعه تتناثر وأوراق همومه تتساقط، ثم هب واقفًا وقرر أن يذهب لزيارتها ليحسم أمره.

* * *

كانت الأيام تمر عليها بطيئة ولا تحمل في طياتها إلا شعورها بالعجز والضعف وإحساسًا مريرًا بالمرض، تفاقمت أوجاعها وحار الطبيب

وخانته العقاقير ونزلت بها السكرات فدثروها في أكفانها واحتمل الرجال الجنازة على أعناقهم إلى المسجد القريب.

ماتت وهي راضية عنه، وكانت تتمتم له بالدعاء فلم يتوانَ في خدمتها، ولم يدخر جهدًا في برها.

أقبل هيثم مصطحبًا مازن عائدًا من مدرسته. مسح كمال على شعر مازن:

- باباك جاي في الطريق هنروح نعزي نصر ونرجع على طول، وانت يا هيثم خلي بالك من المكتبة لحد ما نرجع.

دخل جمال المكتبة بعد أن عاد توًّا من زيارة قبر ضحى وبثها شكوى أفكاره الحائرة وهموم صدره، أخفض هامته وقبَّل رأس مازن ومسح عن جبينه الصغيرعرقه:

- مش هاغيب عليك يا حبيبي ساعة وهارجع.

مازن بشجن: أعمل إيه في الساعة دي لحد ما ترجع؟

جمال متعجبًا: اقعد اتكلم مع هيثم وهزروا سوا زي ما انت متعود.

شعر مازن بأسى فالأمر في هذه المرة مختلف:

- هيثم هيقف يبيع علشان مافيش حد في المكتبة غيره.

تذمر جمال من مناوشة صبيه:

– اعمل أي حاجة يا حبيبي ما تعطلنيش علشان ألحق العزا.

مازن مناشدًا: طيب هات تليفونك ألعب بيه شوية.

جمال: خد يا حبيبي بس ما ترنش على حد.

أسرع جمال إلى سيارته ومعه كمال حتى لا يفوتهما واجب العزاء. تولى هيثم حركة البيع وقد أحاطت يد الفوضى بالمكتبه فأعاد ترتيب بعض الأدوات، ليرسم هيبتها من جديد ويغزل سمتها الطيب، ثم جلس يستريح إلى جوار مازن الذي كان يلهو بهاتف والده.

– هو تليفون باباك فيه فيسبوك؟

مازن دون أن يلتفت إليه: أيوة بابا له صفحة على الفيس باسمه.

هيثم راجيًا: طيب بعد إذنك عاوز أبحث على صفحة حد قريبي.

مازن متعجبًا: هو انت ليك قرايب؟

هيثم بحسرة: يعني فاكرني مقطوع من شجرة؟ طبعًا عندي قرايب وأهل واخوات.

مازن مشدوهًا: طيب ليه مش بتروح تنام عندهم وبتنام في المخزن زي ما قُلت لي؟

جددت كلمات مازن في نفسه شعوره بالضياع وحاول جاهدًا أن يضع سدودًا صناعية أمام عينيه حتى لا تنهمر دموعه، عبثًا حاول فما

استطاع فذرفت عيناه حسرته على تشرده وتركه للتعليم وحنينه لأهله الذي لم يفلح في وأده.

ناوله مازن الهاتف وربت على كتفه فكفكف دموعه وظل يبحث عن أمل يجمعه بأهله ولو على صفحات التواصل، عسى برؤيتهم يرمم جدران الروح المتصدعة من وعثاء غربتها، ويُزيح عنها كآبة المنظر:

– دي صفحة أختي الكبيرة داليا وشوف الصور. دي صورة أختي بسمة عندها ست سنين، يعني قدك وبتحب الكرتون زيك.

مازن مبتسمًا: بسمة أختك جميلة.

هيثم ضاحكًا ليغسل أحزان قلبه: انت هتعاكس ولا إيه؟ دا احنا فلاحين والكلام دا عندنا عيب.

مازن: إمتى هتروح عندهم علشان تاخدني معاك ألعب مع بسمة؟

سرعان ما تلاشت ابتسامته وبدت لوعة الفراق في عينيه وقال بحرقة والحنين يكاد يمزق روحه الثكلى: مش عارف هارجع إمتى.

ربما الجوع يُسكنه كسرة خبز؛ أما الحنين فلا يُسكنه إلا جبر كسرة القلب.

مازن مستعلمًا: طيب هما يعرفوا إنك هنا؟

أومأ برأسه: لا.

عاد جمال وكمال من العزاء

جمال متعجلًا: يلا يا مازن يا حبيبي زمانك جعت.

ارتبك هيثم وناوله الهاتف وغادر مازن المكتبة بصحبة والده.

ربت كمال على كتف هيثم:

- نظرًا للظروف اللي عند نصر هيغيب يومين كمان عاوزك تجمد معايا وتخلي بالك من الشغل.

أومأ هيثم برأسه وطلب منه هاتفه ليتصل بنصر ويقدم له العزاء في وفاة والدته.

* * *

غمرت الفرحة قلب منصور بعد خطبة فاتن فهذا ما كان به يحلم. مر به أشرف فوجده يتسامر مع شاب يشتري منه بعض الكتب فأمهله حتى انتهى وقال مبتسمًا:

- مبروك لفاتن يا عم منصور.

منصور مبتسمًا: الله يبارك فيك يا هندسة وعقبالك يا حبيبي.

أشرف محتفيًا: شادي إنسان محترم وفاتن عملة نادرة. ويا ترى اتفقتم على فترة الخطوبة قد إيه؟

منصور بحفاوة بالغة وفرحة طلت من عينيه:

– تلات شهور إن شاء الله وأهل شادي طلعوا ناس محترمين وقالوا هات اللي تقدر عليه، ولو شنطة هدومها بس يبقى كتر خيرك، ناس حلوين كدا ونفسهم بسيطة.

قلوب سليمة لم تدنسها شكليات ومظاهر عفنة، ستبقى المتهم الأول في قضية تأخير الزواج ولم تلوثها ماديات الحياة التي قام الشيطان بوضع ألويتها الساحرة في يد بعض من أوليائه من البشر، وكحل ببعض بريقها عيون إخوانه من المبذرين ليغالوا في المهور والتكاليف ويحاربوا العفة ويفتحوا سبل الرذيلة للشباب.

ربما منصور لا يعي أبعاد هذه الفكرة التي استوت على سوقها في رأسه، فحدثه بما هو أقرب لنفسه:

– «أعظم النساء بركة؛ أيسرهن مؤونة» زي ما قال النبي عليه الصلاة والسلام، واللي شاري ما بيدورش يا عم منصور، وفاتن طيبة وتستاهل كل خير.

منصور: وانت يا ابني تستاهل الخير كله، والجواز قسمة ونصيب؛ لكن بصراحة أنا ما كنتش أتمنى عريس لفاتن غيرك.

كانت كلمات أحد الصالحين تطن في رأسه «زوج ابنتك لمن يتقي الله؛ إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها».

أشرف بتودد: فاتن زي أختي يا عم منصور وبعدين أنا خاطب.

منصور مندهشًا: طيب وينفع كدا تخطب من غير ما تقول لي؟

لم يكن ارتباطًا رسميًّا توثقه العقود بقدر ما كان امتزاجًا للأرواح، وتشابهًا في الرؤى والأفكار، وطباعًا صُبغت بلون واحد.

أشرف بشغف: أنا ما خطبتش رسمي؛ لكن محدد اتجاهي وقلوب متوفقة زي ما بيقولوا.

منصور مستفسرًا: كانت زميلتك في الجامعة؟

يتعاظم الحب كلما دنت الديار من الديار، فكم وقف في شرفة منزله يترقب طلتها ليهنأ قلبه برؤيتها، تنهد برفق ثم قال بوجد تجلى في عينيه:

- جارتنا في البلد وباحبها بقالي سنين، بس البيت عندهم فيه مشكلة ومستني الجو يروق واتقدم رسمي.

منصور مستخبرًا: خير، مشكلة إيه اللي عندهم؟

أشرف بغم بالغ: ابنهم سايب البيت وهربان من كذا شهر.

منصور مبتهلًا: ربنا يعترهم فيه ويجمع شملكم على خير.

جمع منصور قلبه في دعائه ورمق أشرف بنظرة حانية، فألقى أشرف بصره على الأرض وشعر بحسرة ملكت جوانحه وقال بصوت مختنق:

- المشكلة الكبيرة إن أنا عترت فيه بيشتغل في ورشة ناجي بس هرب مني.

صاح منصور وهب واقفًا:

- دماغي بتهنج يا ابني ماعلش السن ليه حكمه، ناجي عدى عليَّ من يومين وسألني عليك.

فقد ناجي هاتفه بعدما غافله أحد الصبية وهو يقوم بإصلاح دراجة رفيقه، واستله من الشاحن وذابا سريعًا من حوله، فاقتاد دراجته بعدما أغلق الورشة وبحث عنهما في جنون دون جدوى، فطالعت عيناه هيثم في مقر عمله الجديد:

- بيقول لك هو شاف بلدياتك شغال في مكتبة الضحى وما تغلطش الغلطة اللي فاتت وتبين نفسك له لحد ما تبلغ أهله وييجوا ياخدوه.

همّ أشرف بالاتصال بماهر هذه المرة حتى لا تتكرر منه حماقته السابقة؛ ولكنه خشي أن يكون التبس الأمر على ناجي ورأى من يُشبهه فأراد أن يتثبت من الأمر أولًا.

* * *

دلف جمال إلى غرفة مازن ليطمئن عليه ويروي ظمأ روحه لضحى بالحديث معه؛ فقد ورث مازن من أمه شيئًا من ملامحها وبعض مفردات الكلمات ولمعان عينيها عندما تبتسم، وكأن شذرًا من روحها ظل متعلقًا به وأبى الرحيل.

- خلصت مذاكرة يا حبيبي؟

مازن بحماس: أيوة خلصت يا بابا.

جمال بعطف وتودد: طيب ينفع نقعد شوية ولا عاوز تنام؟

وجد مازن الفرصة سانحة ليكرر طلبه:

- فيه حاجة طلبتها من حضرتك ونسيت تجيبها.

ابتسم جمال ومسحت يده على شعر مازن:

- حاجة إيه يا حبيبي؟ فكرني.

مازن باسمًا: أنا طلبت منك تجيب فاتن تعيش معانا في البيت.

تنهد جمال على بيت أحلامه الذي صار أطلالًا وعلى أمانيه التي تبخرت، فقد كانت فاتن تحقيقًا للمعادلة الصعبة، فقد اجتمعا هو ومازن على حبها؛ ولكن أتت الرياح بما لاتشتهي سفينة أحلامه، ورست فاتن بقاربها الصغير على شاطئ بعيد، فبات كعداء اقترب من خط النهاية فتعثر فجأة وداسته أقدام من سبقهم.

خوى مسرح أحلامه من البطلة فأنزل الستار واعتذر لجمهور مشاعره:

- فاتن خلاص اتخطبت لشادي وهتروح تعيش في بيته، وعلشان انت ابني حبيبي بلاش نتكلم في موضوع فاتن تاني.

تحطمت قارورة أحلامه وتناثرت شظاياها بنيران صديقة، فترنحت أيامه وثملت أمانيه.

مازن بحزن مصطنع: فيه حد تاني عاوزه ييجي يلعب معايا في البيت..

جمال مترقبًا: حد مين يا مازن؟

مازن ببشر: هيثم صاحبي.

بريئة قلوب الأطفال، من يحنو عليها تتمسح به وتبادله صاع الحب بمثله.

جمال بدهشة: انتم خلاص بقيتم صحاب؟!

مازن بكلف وتعلق: هيثم بيلعب معايا وبيشيل شنطتي وبيزعل مني لو ما أكلتش الأكل اللي في «اللانش بوكس» علشان كدا أنا باحبه.

الحب عاطفة لا تعترف بتفاوت العمر أو البيئة، ولا تعترف بالفوارق الاجتماعية؛ بل هي هالة من نورتجذب القلوب فتميل الروح إلى نظيرها.

جمال ممتنًّا: الكلام اللي بتقوله عن هيثم يخليني مبسوط منه؛ لكن مش معنى كدا إنه يعيش معانا في البيت. أي نعم شكله محترم وابن ناس لكن إحنا ما نعرفش عنه حاجة.

مازن بتعجب: ما هو بيقعد يلعب معايا في المكتبة وخالي كمال ما بيقولش حاجة، فليه ما ييجيش يلعب معايا في البيت؟

الطبع لص يسرق دون أن يدري، فخشى جمال على ولده أن يتشرب من طباع سيئة لا تظهر جلية على هيثم، حيث لم يقف على أبعاد شخصيته بعد.

جمال بهدوء: في المكتبة خالك كمال بيكون متابعكم، ولو صدر منه أي هفوة أو تصرف غير مقبول خالك كمال هيتدخل.

داهمته أحزانه على طلباته التي لا تُلبى وحنينه الذي مُنع من الصرف مرة بعد أخرى.

– أنا هانام وانا زعلان منك علشان كل ما أقول لك على حد ييجي عندنا البيت ترفض وتزعلني.

رمقه جمال بنظرة حانيه واحتضنه لتبقى بوصلة مشاعره كما كانت ولا تحيد، وردد في نفسه «كم أتعبتنا الدنيا حتى لم تبقَ بداخلنا مساحة للوجع!».

- مش عاوزك تزعل، وانا حاسس إن قريب ربنا هيفرحنا.

كان الأمل يملأ نفسه بفرحة تنتظره وسعادة تدخرها له الأيام ليهنأ بها قلبه وتطرب بها حياته.

* * *

في الصباح وقف يتابع هدفه بعدما تبينته عيناه وتشبثت به قبضة أحلامه، فربما في اليوم التالي لعودته يعقد قرانه على سمر وتكون الفرحة فرحتين.

رجل يتوكأ على عصاه وهيثم يجلس إلى جواره مكثا دقائق حتى أتى آخر وفتح باب المكتبة.

حدثه كمال مبديًا أسفه واعتذاره:

- غصب عني يا راشد الظروف اللي عند نصر خلتني أستعجل رجوعك المكتبة.

راشد: أنا ما اقدرش اتأخر عن مصلحة الشغل.

طلب راشد من هيثم أن يذهب بالدراجة إلى المخزن ويُحضر بعض الأدوات والألعاب التي اكتشف نقصها من مطالعته السريعة لأجواء المكتبة.

اقترب أشرف من المكتبة ليعترض طريق هيثم ويُمسك به بعدما خرج منها ولكنه تلكأ قليلًا وأدار وجهه للخلف حتى لا يتبين هيثم ملامحه، فقد تعود هذه الطريقة بخسارة مجددة ويفر من قبضته إلى الأبد، تراجعت أفكاره وتراجعت خطواته للوراء حتى غاب هيثم ولم يعد يراه، ثم اقترب من المكتبة ورأسه مكتظ بأفكار متلاطمة يضرب بعضها بعضًا:

- لوسمحت هيثم بيشتغل هنا؟

كمال: أيوة بيشتغل هنا، خير

أشرف: أنا جاره وإحنا من المحمودية وهيثم هربان من البيت من كذا شهر وعاوز بالحكمة نحتويه لحد ما أبلغ أهله؛ لأنه قبل كدا هرب مني لما شُفته في ورشة عجلاتي.

تفاجأ كمال بما سمع لكن لعل في الأمر سرًّا دفعه ليترك دفء بيته وملاعب صباه ويضع أيام عمره وديعة لحساب حياة التشرد والضياع.

- طيب سؤال بسيط علشان أعرف اتكلم معاه، هو فيه مشكلة هرب بسببها؟

أشرف باستياء: هو هرب من قسوة والده معاه.

(العنف الأسري معول هدم نقض عري المجتمع ووفتت لبناته، ومن جحيم هذه البيوت التي تلظت بهذه الظاهرة تفر القلوب الضعيفة للشارع الأشد قسوة، وقد تفشى هذا البلاء، وعلى أجهزة الدولة التكاتف للبحث عن العلاج والوقاية).

ورقة في مقدمة بحث قام جمال بكتابتها أمس وقعت عليها يده فقرأها بصوت مسموع ثم أردف قائلًا:

- أنا هامهد معاه الكلام بس المطلوب منك تقف بعيد وما تجيش غير لما أشاور لك وإن شاء الله يستجيب ويروح معاك المرة دي، وتبقى مفاجأة حلوة لأهله.

قطع حديثهما صراخ المارة في الشارع؛ سيارة مسرعة صدمت هيثم وأجهزت على روحه التي كانت ترتجف وتبحث عن وجه أشرف، وكأنها أيقنت بوجوده في انتظارها فقررت الهروب هذه المرة ولكن بلا عودة مطلقًا.

* * *

في قرية هيثم كان كل شيء هادئًا كطبيعة الحياة في الريف، حتى اتصل أشرف بأبيه صالح ليخبره بوفاة هيثم، وانتقل الخبر سريعًا بين أهل القرية فخيم الصمت على الجميع، واتشحت القرية بالسواد، صراخ وعويل يأتي من بيت هيثم، ولم يتحمل أبوه الصدمة فخارت قواه ولاذ إلى الأرض يحثو منها التراب على رأسه.

أتت سيارة الإسعاف تحمل جسده الصغير فاجتمع الناس حولها ولم يتمكن أحد من إنزاله وإيداعه في النعش، فتقدم أحدهم وصلى عليه صلاة الجنازة وهو في السيارة.

شباب في مثل سنه وزملاء المدرسة كلهم ينتحبون عليه. طالت غيبته شهورًا وانتظروه يعود ليعانقهم ويشاركهم مرحهم؛ فعاد إليهم مسجيًّا في أكفانه التي طوت أحلامه بالنجاح والغنى فرجع صفر اليدين.

انتظره أبوه كي يعود ويفتح معه صفحة جديدة بمداد الحب والعاطفة تُكتب سطورها، ويكون له عونًا يتكئ عليه؛ فعاد ممزق الجسد لتمزق الحسرة فؤاده وتدغدغ الفاجعة كيانه.

أمه الثكلى التي فقدت صبيها الوحيد كانت تُمني نفسها بعودته لتفرح ويسعد قلبها به وتزفه وتحمل أولاده، فلم تجد شيئًا تحمله إلا وجع الفراق ومرارة الفقد، ولم تعرف طريق قلبها إلا الحسرة والحرقة.

كانت سمر تنتظره يعود لتكتمل فرحتها به وهو يضع يده في ذراعها ويوصي أشرف أن يُحسن إليها، فجدبت أرض الأحلام وجفف المصاب مجرى أمانيها.

ترقبت داليا عودته ليحنو على رضيعها الذي تجرع اليتم وهو لم يزل في أحشائها؛ فعاد بجسد بارد ونبض أجهزت عليه أقداره فغاب في طبقات الأرض وتوارت معه الأحلام وتجددت الأحزان وطرق على قلبها معول جديد.

مشى وريد الحلم ينزف دمًا ودموعًا ولوعة وكآبة على جدران أرواحهم، فكانت شقيقته بسمة أكثرهم حبًّا له وأكثرهم غمًّا على فراقه، حمل قلبها الصغيرمن ألم الفراق ما فاض عنه، فقد كانت تنتظرعودته ليعقد لها ضفائرها ويشتري لها الحلوى كلما اشتهت، جثم الحزن على صدرها وظل وجهها يقطر حسرة على روحها التي غابت معه في قبره، فلن تجد بعد اليوم من يُداعبها ويحنو على طفولتها البريئة.

أرخى الحزن ستائره على قلوبهم فباتوا في ليلة تعيسة.

* * *

عاد مازن إلى بيته وألقى حقيبته على الأرض فقد صدمه نبأ وفاة هيثم. فحين ذهب كمال ليأخذه من المدرسة تعجب، لمَ لم يأتِ هيثم؟!

فأخبره كمال دون تمهيد «صدمته سيارة ومات» فتجددت أمام عينيه صورة مصرع أمه.

عجز عن الكلام وكأن كل من يحبهم وبهم يتعلق تصدمه الحياة بخبر وفاتهم، أوجعه فراقه فقد كان رفيق مرحه وأنيس سمره، وبأسلوب أقرب إلى سنه وإدراكه كان يحاوره.

أتى جمال ومسح على رأسه بيده، وبنظراته الحانية مسح على قلبه:

– غيرهدومك علشان تنام شوية وبعدين تصحى تذاكر.

فأشار برأسه: لا.

جمال: أكيد انت جعان، هنتغدى سوا.

فأشار برأسه: لا.

الصمت الذي يدخره مازن لوقت البلايا أرهق فؤاد أبيه وأعيا روحه المثقلة بأوجاعه التي لم تفارقه إلا قليلًا، فرست مراكب الأحزان بين ضلوعه مرة أخرى وكأن مرافئ الدنيا أبت بالإجماع أن تستقبلها فعادت لتستوطن حنايا صدره:

– يا مازن يا حبيبي مش هينفع اللي بتعمله فيَّ، أنا ما صدقت إنك خفيت من صدمة موت والدتك لأنها ماتت قدام عينيك، وانت كنت بتحبها جدًّا ومتعلق بيها. لكن هيثم يا دوب معرفتك بيه شهر، آه

ممكن تزعل عليه شوية لكن ليه تحرمني من سماع صوتك وانت الحاجه الحلوة اللي باقية في حياتي؟!

قد لا يعلم المرء عمق محبته لغيره إلا وقت رحيله؛ ولكن مازن لم يكن جاهلًا بمشاعره تجاه هيثم، فتألمت روحه في صمت لفراقه ولاذ بالسكون.

ناشد جمال في نفس مازن الصبر حيث هو الضياء لنكبات الدنيا ومصائبها الحالكة، ومن يتدرع به في محنته ينجو. أما السخط لن يعود على صاحبه إلا بويلات جديدة:

- يا حبيبي انت راجل والراجل يتحمل ويقاوم، أنا عايزك تتعامل عادي ومافيش حاجة تكسرك. إنما كل ما تصدمك الحياة تضعف وما تقدرش تواجه!

أراد جمال أن يحيطه علمًا بتقلبات الدهر القادمة، حيث الدنيا دار هم وغم، وأكدار الحياة لا تنتهي، وفواجعها لا تخمد، وليس بوسع أحد أن يفر من قدره.

- كل شوية هتسمع خبر وفاة حد من أهلك أو الجيران أو الصحاب ما ينفعش تبقى ضعيف وهش قدام كل محنة؛ لازم تقوي قلبك علشان يتعود على الحرمان ويتحمل الفراق.

مازن بقلبه الصغير وأوجاعه الكبيرة لم يعد بوسعه إلا أن يختبئ خلف صمته ويبقى أسير كهفه ورهين أحزانه، وكأن الدنيا أنبأته بأن رصيده من السعادة عفوًا قد نفد.

– الراحة والفرحة في الجنة وبس، والموت علينا حق، فلما حد بنحبه يموت لازم نصبر ونتحمل فراقه؛ علشان ربنا يدخلنا الجنة ونشوف فيها حبايبنا اللي ماتوا.

ليت قلب مازن يعي هذه الكلمات لتتدفق في حناياه السكينة ويجفف أحزانه قبل أن تسحقه المحن وتدور عليه الأيام.

❋ ❋ ❋

مر أسبوع على وفاة هيثم وانفض المعزون رويدًا من بيت ماهر؛ ولكن أشرف كان دائم الزيارة لهم في كل مساء بعدما يعود من عمله متحملًا في هذة الأيام مشقة السفر ليواسيهم ويكون إلى جوارهم.

قد تملك الذعر صفاء على سندها الباقي الذي قصفت الفاجعة كيانه المتصدع فهوى وسقطت أعمدته التي كانت تتكئ على حلم عودة الابن الشارد:

– من بعد ما رجع من دفنة هيثم الله يرحمه ما اتكلمش ولا كلمة، أنا خايفة عليه يحصل له حاجة.

أشرف مواسيًا: يا عم ماهر المؤمن مصاب، وربنا يعوضك عنه بالخير ويجعله في ميزان حسناتك.

عقدت الصدمة لسانه وسحقت بقايا عزيمته وتأوه ضميره في صمت وأحاطت به خطيئته في التربية ولم يقوَ على معاتبة روحه فانفلت منها. خشيت صفاء عليه ورقت لحاله ولم تبرح عيناها فراشه، ووجعه يتمدد كالغيوم في مآقيها.

– أنا عايزاه يصرخ ويعيط بس يتكلم وما يحبسش جواه، عيط وفضفض يا ماهر ما تضغطش على نفسك.

فقد ماهر قدرته على البكاء وظل واجمًا وكأنه يختبئ من نفسه ليتفلت من لومها، وضع عصاه الغليظة منذ شهور فوق خزانة ملابسه وكانت عيناه لا تبرح موضعها، وخُيل إليه أنها تسعى وتطل عليه كل حين لتضرب أفكاره ونفسه الواهنة.

امتزجت نظرات سمر بالشفقة والخوف وقالت وهي تمسح على رأس بسمة التي وجدت راحة قلبها الصغير في النوم وقد استلقت بجوارها: إحنا مش باقي لينا غيرك يا بابا ما تخوفناش عليك.

أطرق ماهر رأسه واجمًا وخشي أن يفترش صيوان أحزانه قلبه المكلوم أمدًا بعيدًا. فرفع بصره متضرعًا وابتهلت آهاته.

داليا الذي احترق قلبها مرتين وما زالت تحمل في نفسها ركنًا مظلمًا قالت وعيناها لا تبرح فراش أبيها: خفف عن نفسك يا بابا الدموع ساعات بتريح.

عن تجربة تتحدث فقد تلظت جوانحها على زوجها الذي جنت عليه طلقة مارقة، وقبل أن تخمد ألسنة الأحزان تجددت بموت شقيقها، فليت الدموع تُطفئها!

قلب أشرف بصره في سقف الغرفة وتنهد وقال بصوت يملؤه الشجن:

– هو الفراق صعب؛ لكن مافيش حد له في نفسه حاجة وربنا استرد وديعته، وقضاء الله نافذ لا محالة، والنبي عليه الصلاة والسلام بيقول «إذا قبضت الملائكه روح ابن العبد المؤمن سألهم الله عزوجل وهو أعلم: أقبضتم روح ابن عبدي؟ فيقولون نعم. أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم. وماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع. فيقول سبحانه: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد».

فرصة لك يا عم ماهر يكون لك بيت في الجنة لما تصبر؛ لكن الاعتراض والسخط مش هيغير حاجة من أمر الله، وهيضيَّع ثوابك، فاحنا ما نملكش غير الصبر.

مصائب الدنيا ظلمات، ويتجلى الصبر نورًا أيام المحن، ويبقى الجزع سوء أدب مع الله، وإنهاك لقوى الروح والبدن. حاول أشرف أن يبث في نفسه هذه المعاني.

اكفهرت ملامح صفاء الشاحبة فلم تر عليه أي أثر لوعظ أشرف له: أنا خايفة عليه ألا الحالة دي تطول معاه.

أشرف مشفقًا: أنا هاسأل على دكتور كويس في اسكندرية نعرضه عليه.

ذهبت به أحزانه بعيدًا على امتداد أوجاعه ولم يجد لجراح قلبه بلسمًا، فقد طحنته المحن ونالت منه أنات نفسه فلم يبقَ منه شيء إلا وسقط حتى سقط هو من عين نفسه.

* * *

كان علي يتجول في القرية راكبًا فرسه الجامح مزهوًا بنفسه يقفز به الترع والمصارف ويسابق به الريح، فلم يعد شيء يخشاه بعدما قطع الخيوط التي تصله بجرائمه وقد خطب ابنة أحد أثرياء القرية واشترى لها شبكة بخمسين ألف جنيه نكاية في داليا التي أبت الزواج منه، وكان التجهيز لعرسه على قدم وساق؛ شقة فاخرة وأثاث راقٍ أتى به

من مدينة دمياط، وحرفيون مهرة استقدمهم من الإسكندرية فكان مسكن عرسه لا يضاهيه في الريف جمال. وما بقي إلا أيام على زفافه فاشترى ذبائح وليمة العرس واتفق مع أشهر المطربين ذائعي الصيت في البحيرة متجاهلًا أحزان أسرة ماهر على فقد ابنهم.

وكان أهل القرية يجلسون عنده كل يوم بعد صلاة العشاء يتسامرون احتفالًا بعرسه الذي دعا له كل أبناء القرى المجاورة، وكأنه أراد أن يكون حفل زفافه مُفعمًا بالصخب والضجيج بصورة فجة عن ضجيج أهل القرية يوم أن فرت داليا من خطبته. وقد أعلن للجميع أن وليمة العرس ستستمر ثلاثة أيام، فابتهج أهل القرية لذلك ولم يُعكر صفوهم إلا عدوه بفرسه الجامح في شوارع القرية؛ فكانوا يخشون على أولادهم من جموح فرسه، فمنعت تهاني زوجة مصطفى ابنها من النزول إلى الشارع من فرط قلقها عليه، فكان محمد يقف على سطح منزله يمتع بصره بالزرع ويضرب بالنبلة حتى رأى علي قادمًا بفرسه من بعيد في اتجاه الترعة الكبيرة الذي اعتاد أن يقفزها، فصوب النبلة إلى الفرس الذي جعله رهين بيته وأطلق خذفته ونادته أمه فأسرع إليها وسكنت الخذفة عين الفرس وهو يقفز الترعة؛ فانكفأ

وسقط في الترعة وسقط علي من فوقه وقد اندك عنقه ومات في الوحل بعدما عاش فيه زمنًا.

* * *

وضع كفيه على وجهه وأسند مرفقيه إلى المكتب وتنهد بحزن للحالة التي صار إليها مازن، واستفاق من شجونه مع دق الباب وكما اعتاد دس أحزانه في أعماق قلبه واصطنع ابتسامة زائفة يوراي خلفها مناحته، فمن يشكو للناس جراحه يُعمقها.

– اتفضل يا أشرف. على فكرة أنا مبسوط منك علشان اندمجت مع زمايلك بسرعة وبقيت بتجاريهم في خبرتهم وكفائتهم مع إنهم شغالين في المكتب من قبلك بكتير.

انتشى أشرف بهذا الثناء الذي سكب في أعماق نفسه الثقة يستحثها كي تأتي بالمزيد:

– ربنا يجعلني عند حسن ظنك حضرتك، سؤال بعيد عن الشغل، جاري لما ابنه اتوفى ما بقاش يتكلم وكنت عاوز حضرتك تدلني على دكتور كويس نعرضه عليه.

المعاناه واحده في بيتي وبيت جارك، نفوس هشة لا تقوى على مكابدة الأقدار المؤلمة.

فلو كان الصبر رجلًا لوبخهم وأنكر عليهم ما يصنعون، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط. عاد جمال من حديثه مع نفسه إلى حديثه مع أشرف:

– دكتور صلاح عامر. هاشوف رقم عيادته في روشتة مازن وابعته في رسالة لك بالليل.

خرج أشرف وعاد جمال إلى أحزانه وشرود أفكاره، رجع بالكرسي إلى الخلف وتنفس بعمق وتطلعت عيناه بسقف المكتب وتذكر أيام شبابه، كان جادًّا ادخر مشاعره وأحاط قلبه بكفيه حتى لا يجرفه تيار الهوى، لم ينغمس بخطيئة ولم يلج باب الشهوات؛ بل تركها لله وانتظر أن يعوضه الله بخير مما ترك حتى جاءته ضحى كهدية من السماء، فأشرقت أيام عمره على كفيها حتى استرد الله وديعته، فجثت أيامه على ركبتيها بعد أن تجرع قلبه مرارة اليتم.

سنواته الماضيه عصرتها أفكاره في بضع دقائق ثم أتته رسالة واردة على «ماسينجر» فانتبه لها.

– مين حضرتك؟

– وبتسأل ليه؟

– انت بعت لي رسالة من كام يوم بس انا ما اعرفش حضرتك.

- رسالة إيه؟

- انت بعتت لي رسالة بتقول لي فيها «إزيك يا داليا وحشتوني كلكم» وأنا صفحتي اسمها «ولنا أمل» فحضرتك مين وعرفت اسمي منين؟

تفحص جمال هاتفه ليتثبت من حقيقة الرسالة.

- الرسالة فعلًا مبعوتة من تليفوني لكن مش أنا اللي بعتها.

- ممكن اعرف حضرتك مين؟

-انا دكتور جمال صفوت أستاذ في كلية الهندسة.وما اعرفش حضرتك، وأنا مستغرب بجد ومش عارف مين بعت الرسالة دي، ومافيش حد بيستخدم الموبايل غيري والصفحة ما اتهكرتش، حاجة غريبة فعلًا ومش قادر أستوعب حصلت إزاي؛ لكن يهمني إنك تعرفي لا سني ولا مركزي يسمحوا لي بالتطفل على حد أو مضايقته

عمومًا أنا آسف لإزعاجك، ولو عرفت مين بعت الرسالة هابلغ حضرتك.

إلى هذا الحد انتهت الرسائل المكتوبة بينهما وبقيت أسئلة كثيرة في رأس كل منهما، ولعل الأيام القادمة تتمخض عن إجابات لتلك الأسئلة الحائرة.

* * *

استقدمت داليا سيارة أجرة لتذهب بوالدها إلى الطبيب صلاح عامر، وتركت رضيعها مع جدته لترعاه حيث لا يتحمل السفر، فسألت عن مكتبة الضحى حتى وصلت إلى هناك لتأتي بما بقي من ذكراه:

– لو سمحت أنا أخت هيثم الله يرحمه، لو ليه متعلقات شخصية عندكم أنا عايزاها.

نصر بآسي: البقية في حياتك وربنا يرحمه، أكيد كان له أغراض لكنه كان بينام في المخزن ومفتاح المخزن مع الأستاذ كمال وهو في الشغل وهيرجع العصر.

داليا: أنا رايحة أكشف على والدي وإن شاء الله أعدي عليكم بعد الكشف.

عادت داليا إلى السيارة وأحاطت بذراعها عنق أبيها حتى وصلا عيادة الطبيب وقد حجز له أشرف؛ ولكن ظروف عمله منعته من حضورالكشف معهم.

داليا: لو سمحت فيه كشف باسم ماهر حسين.

الممرض: قدامك حالتين، فيه حالة منهم هنا والتانية لو ما جاتش هتدخلوا مكانها.

جلست داليا إلى جوار أبيها تربت على كتفه وتغمره بعطفها وتدعو له بصوت مسموع، فرفع ماهر بصره وكأنه يؤمن على دعائها يرجو لروحه التي مزقتها الفاجعة أن تلتئم، بعدما أخذ نصيبه من وجع الحياة بـ «شيك» مفتوح ويخشى أن يبقى حامله.

الممرض: ماهر حسين.

داليا: نعم.

الممرض: الحالة ما جاتش وهتدخلوا مكانها.

أسندت أباها حتى يتهيأ للوقوف ونادها الممرض ليعطيها المبلغ المتبقي لها.

دلف العيادة جمال ومازن.

جمال: فيه حجز باسم مازن جمال.

الممرض مُبديًا أسفه: حضرتك اتأخرت وأنا ناديت على الحالة اللي بعدك. وأشار إلى داليا.

جمال بهدوء: مافيش مشكلة.

داليا بأدب جم: مش فارقة لو حضرتك عاوز تدخل اتفضل دا دورك.

جمال بارتياح وسكينة وقد رماها بنظرة حانية:

- أنا هاستنى أنا ومازن شوية لحد حضرتك ما تخلصي كشف.

عيناها بحر غريق كل من خاضه، فآثر السلامة واتجه إلى أحد المقاعد الخالية قبل أن يُدركه دوار البحر.

* * *

جلست صفاء في غرفة هيثم وفتحت الحقيبة التي أحضرتها داليا معها وأخرجت ملابسه، تارة تقبلها وتبكي، وتارة تضمها إلى صدرها، تتنسم منها عطره وتروي حنين روحها إليه، فقد أخذ يوم هروبه كل ملابسه ولم يترك إلا بدلة الضابط التي اشتراها والده له منذ سنوات، هيج الحزن دموعها فانتحبت وكأنه ما مات إلا الساعة، قهرها غروبه وأوجعها ثكله، ماتت على أعتاب قبره بهجة حياتها ولذتها.

دلفت داليا وهي تحمل ولدها إلى الغرفة فرأت دموع أمها الثكلى تنهمر كشلال انهارت السدود التي تعوق مجراه.

فناولتها أمل عسى تكفكف به دمعها:

– إن شاء الله ربنا يعوض علينا بأمل ويبقى أمل لنا كلنا.

ضمت أمل إلى صدرها فخمدت لوعتها وقالت:

– أبوكِ عامل إيه دلوقتي؟

داليا: خد الدوا ونام.

صفاء بقلق: طمنيني الدكتور قال لك إيه؟

داليا بحزن: قال دي حالة خرس مؤقت نتيجة صدمة موت هيثم، ومع الوقت والعلاج هيخف إن شاء الله.

نبه الطبيب على أهمية العامل النفسي في الشفاء، وكذلك الجانب الإيماني لتجفيف منابع الأحزان وتجريف كل الأراضي الخصبة للشجن والأتراح من حولها:

- يعني مالوش لازمة يشوف دموعنا، نحاول نداري حزننا علشان يقدر ينسى، خاصة إن بابا حاسس بتأنيب ضميره لقسوته مع هيثم.

ندبات ألمت بروحه وآهات وصرخات استشرت في أعماق نفسه، وجروح وطعنات أنهكت قواه وتوالت على قلبه الضربات حتى أتته الضربة القاضية فطرحت ما بقي منه ولم يبقَ إلا رفات روحه.

صفاء بأسى: اللي شافه أبوكِ يا داليا مش شوية، وهو اتعلم الدرس لكن متأخر، وربنا يعجل بشفاه ويطلع يشوف أرضه وزرعه.

داليا معتزة بصنيع جارها: عمي صالح ربنا يجازيه خير مش مقصر في حاجة من يوم موت هيثم وهو اللي بيرعى الأرض والمواشي.

صفاء: دا جار يا بنتي والجيران لبعضيها.

أيقنت داليا أن طبائع الناس مختلفة وتبقى المروءة رصيدًا لمن اختصهم الله بقضاء حوائج الناس على أيديهم.

- مش كل الجيران بتعمل كدا.

كان صالح رجلًا طيب الملامح، له من اسمه نصيب، يُغذي روحه قضاؤه لحوائج الناس وإغاثة الملهوف، وكانت كفه بالإحسان تمتد لمن يعرف ومن لا يعرف.

تأملت صفاء أمل فوجدته قد نام فناولته لأمه:

- بسلامته ابنك نام حطيه في فرشته وريحي جنبه شوية:

- داليا بعطف: قومي ريحي انتِ كمان تلاقي أمل تعبك من كتر شيله.

صفاء: دي بسمة اللي كانت شايلاه من ساعة ما مشيتم علشان وعدتها لما تروحوا إسكندرية في إعادة الكشف تاخدوها معاكم.

ذهبت داليا إلى غرفتها ووضعت أمل في الفراش واستلقت إلى جواره فقد أجهدها سفرها للإسكندرية، فسلمت عينيها للنوم ولكن رسالة على هاتفها جعلتها تنتبه:

- آسف لإزعاجك؛ لكن في الحقيقة ما عرفتش أوصل للشخص اللي بعت الرسالة:

– أنا نسيت الموضوع دا وما جاش على بالي من بعد ما كلمتك.

– أنا كان نفسي أحل اللغز وأعرف الشخص الغامض صاحب الرسالة.

– اعتبر إن مافيش حاجة حصلت وانا مصدقة إن حضرتك ما تعرفش حاجة عن الرسالة، وعمومًا الهم اللي في حياتي أكبر من رسالة من شخص مجهول بيقول إني وحشته.

– هم إيه؟ إن لم يكن سرًّا. وآسف لفضولي.

– مش سر ولاحاجة، أنا جوزي مات من ست شهور وأخويا مات الأسبوع اللي فات:

– ربنا يرحمهم ويلهمك الصبر، أنا مجرب وجع الفراق على مراتي الله يرحمها، ماتت في حادثة من سنة.

– ربنا يرحمها ويخلف عليك بالزوجة الصالحة.

– آمين. مع السلامة وباكرر أسفي لحضرتك.

جراح مفتوحة لم تندمل بعد من تعاقب محن ونكبات، فتمددت في أرواحهما أوجاع لا تنتهي وبقي في قلب كل منهما حنين وحرمان ولوعة فتشابهت قلوبهما.

* * *

اليوم الجمعة. يوم زفاف فاتن وشادي، دق أشرف جرس الباب قادمًا للتو من قريته.

فاتن معاتبة: أنا كُنت هازعل منك لو أنا مشيت قبل ما تيجي وتسلم عليَّ.

أشرف باسمًا: ما اقدرش أتأخر عنك، دا انتِ أختي وربنا يعلم غلاوتك عندي قد إيه.

قد تجلت السعادة على قسمات وجهها فاليوم يتحقق حلمها بفارس الأحلام الذي ربت على قلبها البكر، فاستشعرت دفء لمساته الحانية وتاقت روحها إليه:

- هتفضل واقف على الباب كتير؟ اتفضل.

قام إليه منصور وعانقه بحرارة.

- ألف مبروك وربنا يتمم بخير وتفرح بولادها.

غمرت البهجة قلب منصور فمنذ سنين وهو يتطلع لهذا اليوم، وكثيرًا ما دعا الله أن يطيل في عمره حتى ينتشي بتلك الفرحة.

- عقبالك يا حبيبي يوم فرحك هاحس إني أديت رسالتي على خير.

أشرف راجيًا: ربنا يخليك يا عم منصور اوعى تكون اشتريت حاجة؟

منصور مندهشًا: أشتري ازاي وانت كلمتني وحلفتني ما اشتري حاجة.

أشرف محتفيًا: فاتن دي أختي وبعدين أنا ما خسرتش حاجة الرومي والحمام؛ والدتي بتربيهم في البيت. اتصلت بيها امبارح وسافرت الصبح وفضلت معاهم لحد ما صليت الجمعة وجبت عشا العروسة معايا في العربية، بس انا ما رضيتش أطلعه قُلت أخليه في العربيه لحد ما نروح بيه بيت شادي.

وقد أتى أشرف كذلك بصنوف الفاكهة والحلوى وطعام خاص لوالدة العريس كما يصنع الناس في الريف، ودس في جيب منصور ألف جنيه وهمس في أذنه أن يزورها بعد زفافها حاملًا لها الهدايا.

منصور ممتنًّا: مش عارف أودي جمايلك فين.

أشرف بحماس: اللي بينْنَا غالي يا عم منصور.

صمت منصوروغابت إشراقة وجهه وذرفت عينه الدموع.

عاتبه أشرف مستنكرًا دموعه:

– انت غاوي نكد يا راجل يا طيب؟ إيه لازمة دموعك في يوم فرح بنتك الوحيدة؟

ساعات قليلة وسيجد نفسه وحيدًا.. بلا أنيس يرافق حياته.. يشاركه أوجاعه وأفراحه. ماذا يصنع وحده؟ فارقته زوجته منذ سنوات.. وها هي زهرة عمره سيفتقد قربها بعدما تدلى ميسمها في أرض جديدة.

منصور بأسى وقد غلب شجنه فرحته:

– ما هي دموعي علشان هيا بنتي الوحيدة ومش عارف هاعيش ازاي من غيرها.

ربت أشرف على كتفه مواسيًا:

– انت لك شغلك واصحابك، وبعدين هو أنا رُحت فين؟ هتلاقيني في وشك ليل ونهار، وكفاية تشوف الفرحة في عينيها علشان تمسح دموعك وتفرح لفرحتها.

كفكف منصور دموعه وهو يرمي ابنته ببصره مع فتيات التففن حولها، فتجلت على وجهه ابتسامة شاحبة حتى لا يُعكر بهجتها ويسرق فرحة عمرها بشجونه.

رفع رأسه قليلًا وتنفس بعمق ووكل أمره لله يدبره في وحدته. وضع أشرف يديه على كتفيه وتبسم له ضاحكًا وقال:

– مبروك يا أبو العروسة.

ابتسم منصور وتهلل وجهه من فيض سعادته ومد يديه وعانقه قائلًا: ربنا يفرح قلبك انت كمان وينولك مرادك.

* * *

اليوم السبت. حيث إعادة الكشف المقررة لماهر حسين في عيادة الطبيب صلاح عامر.

جلست داليا إلى يمين والدها وأمسكت بكفه وقبلته وجففت عرقه بمنديل وكأنها مسحت عناد رأسه وطغيان أفكاره، ربتت على كتفه فقبل رأسها وكأنه يعتذرعن كل تاريخه من الجفاء في حق أسرته، أغمض جفونه ليُخفي دموع ندمه ما استطاع؛ ولكنها تسللت على خديه فمسحتها بسمة برفق وهي تجلس على يساره فأحاطها بذراعيه واحتضنها، فهي وشقيقتاها المؤنسات الغاليات.

مضى وقت قليل وقد أجهد السفر ماهر فغلب النوم عينيه.

وقفت داليا وهمست لبسمة:

- خليكِ جنب بابا وهاسأل فاضل كام حالة قدامنا.

الممرض: قدامك أربع حالات وكلهم موجودين.

دلف جمال العيادة مصطحبًا مازن.

الممرض بتبجيل: أهلًا دكتور جمال، حضرتك هتستنى معانا شوية النهاردا. فيه أربع حالات والحالة اللي مع الأستاذة وبعدين دور حضرتك.

جمالها الريفي البريء الذي لم تفسده ألوان صناعية سلب فؤاده، فبدا في عينيه الشغف وهو يطالعها تتفتح كلما روى ناظريه منها.

جمال مداعبًا: أنا فاكر المرة اللي فاتت اديت دوري للأستاذة.

داليا مرحبة: زي ما تحب حضرتك مافيش مشكلة.

ورمته بلا عمد بسحر قد تجلى في عينيها فابتسم ولهًا وكأنما اكتشف في نفسه جزرًا منعزلة ضلَّ عنها من قبل.

قد تعشق العين في لحظة، بينما يتمهل القلب حتى يُصدر قرار اشتعاله.

حركت ابتسامته التي رماها بها مياه راكدة في قلبها فتخضب وجهها خجلًا وقالت: بعد إذن حضرتك.

كانت بسمة قد أرهقها السفر هي الأخرى فنامت وأسندت رأسها إلى كتف والدها. وجدت داليا أباها وشقيقتها قد تسلل النوم إلى جفونها وبقيت حالات أربع حتى يحين دورهم، فوقفت في الشرفة تغسل هموم قلبها بماء البحر.

اقترب منها جمال:

- لو سمحتِ ممكن تاخدي بالك من مازن؟ أنا هانزل اشتري له حاجة ياكلها وخايف حد يضايقه.

داليا باحتفاء: أنا هاقعد اتكلم معاه لحد حضرتك ما تيجي.

جمال موضحًا حالة مازن: هو مش بيتكلم لكن بيسمع عادي.. أشتري لحضرتك حاجة معايا؟

داليا بلطف: شكرًا لذوق حضرتك.

كان مازن يجلس في مجابهة ماهر وبسمة فجاءت داليا وجلست إلى جواره:

- باباك قال لي إن اسمك مازن. انت رُحت المدرسة؟

فأومأ برأسه: نعم.

- أنا عندي أختي بسمة جميلة زيك وفي سنك تقريبًا.

انتبه مازن عندما سمع اسم بسمة حتى كاد ينطق وتعثرت كلماته، ثم صمت واجمًا حتى أتى أبوه حاملًا له العصائر والحلوى.

قامت داليا من جوار مازن.

جمال ممتنًّا: شكرًا لاهتمامك بيه.

داليا برقة وعطف: ربنا يبارك فيه ويتم شفاه على خير.

وعادت حيث كانت تجلس لتروي ظمأ روحها العطشى.

وعلى أشكالها تقع الطيور فجلس جمال بروحه المبعثرة بالقرب منها، وقد سكبت مياه البحر مشاعر رومانسية بداخل أرواحهما المهترئة بعدما سقطت رايات الحب من أيديهما؛ ولكن لم تنتهِ المعركة بعد. فقد كان كل منهما يختلس النظر إلى الآخر وهو يلهو بهاتفه.

تصفحت داليا «الفيسبوك» فوجدت طلب صداقة من جمال صفوت، فوافقت عليه وفور قبولها الصداقة كتب جمال على صفحته منشورًا «ولنا أمل». فكانت أول من سجل إعجابه بالمنشور.

فكتب لها على الرسائل: شكرًا لقبول الصداقة.

- حاجة غريبة إن أول منشور أشوفه لحضرتك يكون باسم صفحتي!

- ولنا أمل في السعادة وراحة البال وإن بكرة أحسن. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «أنا رجل أعيش بالأمل، فإن تحقق فبفضل الله، وإن لم يتحقق فقد عشت به زمنًا».

انتهى مازن من طعامه وأمامه تجلس بسمة؛ ولكنه لم يتبين ملامحها حتى استيقظت من نومها، فلما رآها تبسم واقترب منها:

- انتِ اسمك بسمة؟

بسمة ببراءة: عرفت اسمي منين؟

مازن: هيثم قال لي وانا باشوف صورتك على الفيس وقال لي إنك بتحبي الكرتون زيي. ووعدني لما يرجع بيتكم ياخدني علشان العب معاكِ.

وكأنه ارتد بصيرًا بذكرياته وشجونه وسمره ومرحه مع صاحبه الذي احترق فؤاده على رحيله، فذابت عقدة لسانه. مد لها كفه بقطعة من الحلوى وتبسم ضاحكًا عندما قبلتها.

تنهدت داليا وأطالت النظر إلى البحر ثم كتبت:

– ولكن أحيانًا صدمات الحياة بتكون أكبر من تحملنا وتبدد الأمل بداخلنا؛ لكن السفر والخروج ومنظر البحر بيخلي الواحد ينسى كتير من معاناته.

– انتِ شُفتِ البحر آخر مرة إمتى؟

– أنا هنا في اسكندرية النهاردا باكشف على والدي.

– ألف سلامة عليه، هو عنده إيه؟

– حالة خرس مؤقت وجيت أكشف عليه عند الدكتور صلاح عامر.

– دكتور ممتاز، أنا باكشف على ابني عنده.

انتِ هتروحي العيادة إمتى؟!

- أنا في العيادة دلوقتي ومستنية دورنا في الكشف.

قام جمال وتفحص المرضي ومرافقيهم ثم عاد إلى مكانه.

- أنا في العيادة دلوقتي أنا كمان وأتمنى أتعرف على حضرتك.

- أنا قاعدة قدام البلكونة.

فلم يجد جمال غيرها.. فنظر لها وتبسم.

داليا مندهشة: فيه حاجة حضرتك؟

جمال بشغف: ولنا أمل.

داليا بغرابة: مش فاهمة.

تهلل وجه جمال: أنا جمال صفوت.

أتى مازن منتشيًا مصطحبًا بسمة في يده ومفترشًا بسمة على وجهه:

- دي بسمة أخت هيثم وانا عاوز ألعب معاها شوية.

علامات استفهام كثيرة تزاحمت في عقل داليا وأحداث مبهمة لم تعِها فكشف لها جمال حقيقة ما يدور حولها:

- أخوكِ هيثم كان شغال في مكتبة الضحى اللي أنا شريك فيها، وكان بيروح يجيب مازن من المدرسة وصارت بينهم صداقة.

مازن بتودد: هيثم وراني صورة بسمة من صفحة أخته الكبيرة ووعدني إنه ياخدني ألعب معاها لما يرجع البيت.

تفتت صخرة الغموض عن صاحب الرسالة المجهول فقالت داليا: كدا هيثم الله يرحمه هو اللي بعت الرسالة على صفحتي.

جمال مبتهلًا: الحمد لله يا مازن إنك خفيت واتكلمت تاني..

صبغت ملامحه السعادة: أنا اتكلمت علشان فرحت لما شُفت بسمة.

ابتهج جمال وغمرت قلبه البشرى فقد تحقق أمله بالنعيم الذي يرجوه لفؤاده: إن شاء الله هتشوفها تاني وهنروح عندهم البيت ونبقى قريبين من بعض.

شعرت داليا بغيث السعادة يهطل على قلبها ويغسل صدأ مشاعرها وينساب في حناياها، فأشرق وجهها بابتسامة ساحرة وغمرتها سعادة روت أرض الحرمان التي كانت عليها تحيا أمانيها وقالت:

- مع حسن الظن بالله سيبقى لنا أمل.

تمت بحمد الله